حادثة النبوة، وأثرها على المجتمع المكي خاصة، وعلى سائر المجتمعات بوجه العموم

إعداد

د. الحسين أيت سعيد

أستاذ التعليم العالي بجامعة القاضي عياض

كلية الآداب – مراكش –

المملكة المغربية

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

ملخص البحث

جلالة المبدأ، تنم عن عظمة النفوس التي تتبناه، وتنهجه، وكلما كان المبدأ، راسيَ الأساس، بارزَ المعالم، واضح القسَمات، غدِق العطاءات، تجذرت عروق بواسقه، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها .

هكذا كانت نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لا يدرَى في تاريخ البشرية، نبي ترك من التأثير الباهر، والتغيير الظاهر، ما تركه نبينا صلى الله عليه وسلم، فتأثيره على النفس الإنسانية، وعلى سلوكها، وأعمالها، وتوجهاتها، واختياراتها، وتاريخها، شيء جلي لاينكر، وحقائق لاتستر، فقد ملأ الدنيا، علما، وحكمة، وأخلاقا، ونظما، وتشريعات، بهرت العالمين، وشغلت الناس أجمعين، كما أنه لم تكن سيرةُ نبي من الأنبياء السابقين معروفةَ التفاصيل، مترابطة الحلقات واضحة الملامح – بل لا يوثق منها إلا بما جاء في النص القرآني، والسنة النبوية الصحيحة – إلا سيرةُ محمد صلى الله عليه وسلم، فهو وحده الذي عرفت أدق تفاصيل حياته من بين سائر الأنبياء، من ولادته إلى وفاته .

ولا يعرف تاريخ عظيم من العظماء، بُذل فيه من الجهد، والتنقيب، والتمحيص، والترتيب، ما بذل في سيرة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، فهي مرآة حقيقية صادقة، لحياة طاهرة، نقية، مليئة بجلائل الأعمال التي تنِم عن عظمة النفس، وقوةِ الإيمان بالمبدأ، ومكارم الأخلاق، التي أوتيها محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد كانت الرسالة المحمدية، عالميةً بكل مقاييس العالمية، فهي وإن بدأ تطبيقها في مكة، إلا أن النصوص المكية كلها، تخاطب عامة الناس، وتشرع لجميع البشرية، و هذه العالمية، في تعميمها عملياً على كافة الخلق فقد مرت من مرحلتين :

المرحلة الأولى: مرحلة الإرهاصات، والمقدمات لهاته العالمية .

المرحلة الثانية: مرحلة التطبيق العملي لها.

المرحلة الأولى، وهي مرحلة الإرهاصات . وتبدأ هذه المرحلةا من بيعة العقبة، وهي أول مرحلة في تحول الدعوة وامتدادها خارج مكة، واعتناق غير أهل مكة لها، وقد سجلت لنا مصادر السيرة، تلك البيعةَ التي كانت تفيض حيوية، وحماسا، وتألقا، وبعدَ نظر، ولياقةً، وكياسة من لدن الأنصار، وقد توج هذا الانتقال، بانتقال آخر لا يقل روعة عنه، ذلك الانتقال التلاحمي، التراحمي، المتجلي في مواخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، ذلك التآخي، الذي كان أولى لبنات الرحمة المحمدية، المجسِدة لحقيقة الأخوة الإيمانية التي تنصهر فيها الفوارق، وتذوب فيها جميع العصبيات، وتتلاقى فيها البشرية على صفائها وطهرها الأول، الذي عبر عنه نبي الإسلام بقوله :" لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى "[1]

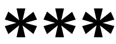
(١) أحمد ٥-٤١١ ويصح بغيره، فقدأخرجه البزار عن أبي سعيد، وقال الهيثمي في المجمع ٨٤/٨ / ورجال البزار رجال الصحيح.

ثم يجسد أيضا عالميةَ الرسالة، تلك المواثيقُ التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود أهل الكتاب، للإيذان بأن عالمية هذه الرسالة، لا تنفي المخالف، ولا ترغمه على اعتناقها، ولا تصادر حريته، مادام لم يكن عقبة كأداء في سبيل هذه العالمية . ثم جاءت غزوة بدر، وأحد، والخندق، متوجةً لهذا المعنى ومؤكدة له، إذ كانت أسبابها كلها، هو إزالة عوائق في طريق الدعوة العالمية، التي بدأت الجزيرة كلها تتحسس أنباءها، وتهتم بتفاصيلها .

المرحلة الثانية : مرحلة التطبيق العملي لهذه العالمية .

وتتجلى هذه العالمية في صلح الحديبية بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش، فقد خرجت الدعوة المحمدية على إثره إلى العالمية الفعلية، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم راسل ملوك الأرض عربهم وعجمهم – يدعوهم لعبادة الله وحده ووحدانيته، ويحذرهم عواقب استمرارهم على الكفر، فقد راسل، كسرى وقيصر، والنجاشي، والمقوقس، وغيرهم يدعوهم إلى الله. وبهذه الرسائل، خرجت الدعوة من جزيرة العرب إلى فارس، والروم، والحبشة ومصر، وكلّها دول، لها وقعها وسيادتها وكلمتها في سياسة الأمم آنذاك . ثم في فتح مكة أعلن النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته الشهيرة، وثيقة التآخي الإنساني التي كانت أول وثيقة في تاريخ الإنسانية، تعبر بصراحة عن حقوق الأفراد والجماعات، وأُتبعت بخُطبة حجة الوداع، التي أقرت حقوقا، وأرست تشريعات،وبينت واجبات في مجالات لم تتطرق إليه المواثيق الدولية المعنية بمجال حقوق الإنسان، ويجدر

بالبشرية أن تجعلها مواثيق دولية، وأن تخلدها دستورا أزاح الفوارق بين بني آدم، وأقر الحقوق، وبذلك تحقق فعلا وواقعا -، بعد تحققه نظرا وتصورا - قوله تعالى في رسالته صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء -١٠٧] فهو حقا رحمة للخلق، وبالخلق في الدنيا والآخرة، فرحمته لا تخفى معالمها، ولا تنمحي آثارها، ولا تجحد أحقيتها وصدارتها، هذه العالمية، هي التي حملها خلفاؤُه من بعده بصدر رحب، ونفس أبية، وأفئدة موقِنة بوعد الله ونصره، فأوصلوها إلى العالم كله، فطابق الخبر المخبَر، وبادَ الباطل وإندثر .فأصبحت ترى في كل قارة، رايةُ الإسلام خفاقة عالية، تنادي بالكلمة الأولى التي بدأ بها محمد صلى الله عليه وسلم في مكة : لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهل في الوجود ما يستحق أن يكرر سواها؟



مقدمـــة :

الحمـد لله الـذي أنـار بـسنا عرفانـه الـسرائر، وأزاح بوحيـه الـرّان عـن الـضمائر، وأزال سُجُف الحـيرة عـن فهـوم البـصائر، واعتـصم بـه مـن كـان عزيـزا فتـصره، ومـن كـان موفّقـا فـسدده وهـداه، تبـارك الله رب العـالمين، الـذي احتجـب بكبريائـه عـن خلقـه، وعـز بقدرتـه في ملكـه، وبهـر البريـة بـصنعه وحبكـه، وراس في جلالـه وعظمتـه، وعـرّف نفـسه لخلقـه بآثـار أسمائـه وصـفاته، ومـا بثـه مـن آيـة في أرضـه وسماواتـه، وبدَعَهم لعبوديته وإلاهيته، وساسهم برسله وشريعته،

والـصلاة والـسلام علـى الأُرومـة العدنانيـة، والدوحـة الهاشميـة، وخلاصـة البريـة، نبينـا محمـد صـلى الله عليـه وسـلم الـذي أَسـحمت سُحُب نوالـه، وتـوالي غـدق سـخائه وعطائـه، وفـارت ينـابيع رحمتـه ورأفتـه، وشـعت مـصابيح هديـه وسـنته، وارتـشفت الخليقـة مـن علمـه وحكمتـه، فمـنهم مـن روِي حتـى ضـرب بعطـن، ومـن احتـسا منـه كالوشـل، ومـن نالتـه قطـرات، واسـتوكف رشـحات، ومـن يأكـل أصـابعه أسـفا، ويـزدرد ريقـه لهفـا، نادمـا علـى مـا فاتـه بفـسولته مـن بركاتـه، ومـا أغفلـه مـن هدايته بغمارته.

وعلـــى آلـــه وصـــحبه، الـــدرر اللوامـــع، والمحجـــات الجوامـــع، والـــشهب النواصـــع، والبـــدور الطوالـــع، والنـــصول القواطـــع، والنجبـــة النوابـــغ، وعلـــى مـــن تـــبعهم بإحـــسان، وســـعد بالائتـــساء بهـــم في الـــسر والإعلان، وجعلهم مصدر الاستمداد والتلقي إلى يوم الدين.

أمـا بعـد : فـإن مكـة المكرمـة شـرفها الله تعـالى، قـد اجتباهـا

رب العزة لتكون مبوأ بيته، ومأرز عباده، ومقام طاعته، فهي أشرف البيوت، ومنها بعث أشرف الأنبياء، وفيها نزل عليه أشرف كتاب، في أشرف شهر، فحازت الشرف من كل جهة : شرف الزمان، وشرف المكان، وشرف النبوة، وشرف الرسالة، وكل ذلك بعلمه تعالى وتقديره، وإرادته، ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة، سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ [القصص – ٦٨]

وبحكمته جعلها مهوى الأفئدة، ومناط الكرامة والعزة، لا يلجها أحد إلا وهوِي المقام فيها،

وما خرج منها أحد إلا وتمنى القفول إليها، وكلما تكرر ذلك، أذكى لوعةَ الشوق، وأثار شجون الحنين والتوق، وهذه خصيصة ليست لبلد سواها، ولا لبقعة غيرها، وخصائصُها كثيرة، وفضائلها جمة، وأَفضالها على الناس كافة لا تحصى، فما من إنسان على وجه البسيطة، إلا ولمكة في عنقه مِنّة، ولها عليه أيادٍ جمة، إذ منها تدفقت المعارف والعلوم، والحكمة، والفهوم، وفيها ترعرعت أصول الأخلاق، ومستقيمات الأذواق والفنون، فما من مدرسة، أو جامعة، أو مَقرأة في الدنيا، إلا وهي فرع عن المسجد الحرام، وما من عالم، أو حكيم، إلا ويدين في علمه وحكمته، للبيت الحرام .

سل خبيرا عنها يُفِدك يقينا   أنها غرة الزمان المديد

كلُّ فضل يؤول قِدما إليها   شأنها كلَّ لحظة في مزيد

وإذا كان البلد الحرام بهذه المثابة، فإن هذا البحث لا يروم الوفاء بآثار النبوة عليه، ولا يتوخى إحصاء ذلك والإتيان عليه، لأن كل آية من آي القرآن الكريم، وكل توجيه من توجيهات النبي الكريم، يعتبر أثرا في حد ذاته، ويعد لبنة في صرح هذه الشريعة، التي هي من آثار النبوة، ولوازمها، وإنما يتفصَّى هذا البحث الوقوفَ على نمادج بارزة من تأثير النبوة على المجتمع المكي بخصوصه، وعلى المجتمع العالمي بعمومه، لتكون نبراسا لمن يستهدي الهداية، ومَعلمة لمن يَنشد الاحتذاء والاقتداء، حتى تستقيم له المقارنة بين ما خلا قبل النبوة، وما كان بعدها، ليعلم قدر النعمة التي ترفل البشرية في أثوابها، وتكرَع من حياضها، ولن ندخل عند ذكر هذه النمادج في التفاصيل الدقيقة، والجزئيات المختلفة، لأن ذلك تكفلت به كتبُ السيرة النبوية، وإنما نأخذ الصورة البارزة من صور هذا المجتمع قبل النبوة، ونُعقِبها بالتغيير والتأثير الواقع عليها بعد النبوة، ونبين وجهه، ونحلله إلى عناصره، ونبرز قيمة ما آل الأمر إليه بعد النبوة، وما كان عليه من دناءة وخسة قبل النبوة، حتى يصح الانتقال الذهني من الأدنى إلى الأعلى، ومن الشَّين إلى الزَّين.

هذا، ولن أستشهد في هذا البحث من أحداث السيرة إلا بما هو مقبول بمقاييس المحدثين، وإذا اقتضى النظرُ سوق ما ليس كذلك، فإني أنبه عليه، حتى يكون القارئ على جلية مما يقرأ، ولا يكون كحاطب ليل، أو جالب رجل وخيل.

هذا وقد استقر لي تناول هذا الموضوع، في المحاور التالية :

المحور الأول : مقدمات ممهدات

أ- النبوة اصطفاء واجتباء

ب - النبوة ضرورة فطرية

ج - النبوة ضرورة إنسانية ودينية

د - مكة المكرمة، الدلالة والتسمية

هـ - تعليل هذه التسمية

و - لماذا بعث جميع الأنبياء في جزيرة العرب ؟

المحور الثاني : حالة المجتمع المكي قبل النبوة .

أ - الحالة السياسية

ب - الحالة الاجتماعية

ج - الحالة الدينية

د - الحالة الاقتصادية .

المحور الثالث : استنارة الوجود، بولادة سيد العالمين صلى الله عليه وسلم .

أ - شرف النسب والحسب

ب - حضوره عليه السلام حلف الفضول

ج - فصله عليه السلام في نزاع قريش فيمن يضع الحجر الأسود في جدار الكعبة

د – زواجـه صـلى الله عليـه وسـلم بخديجـة بنـت خويلـد رضـي الله عنها .

المحور الرابع : حادثة النبوة، وأثرها على المجتمع المكي خاصة

أ – البشرية وتدوين أحداث التاريخ

ب – المسلمون وتدوين أحداث التاريخ

ج – مناهج تدوين الأخبار لدى المسلمين

د- آثار النبوة على المجتمع المكي خاصة.

أ – الآثار النفسية

١) تقديم

٢) تجليات الآثار النفسية

٣) مسالك تقرير هذه الآثار

ب – الآثار الاجتماعية

١) ظاهرة الجهل والأمية

٢) ظاهرة التفاخربالأحساب والأنساب

٣) ظاهرة التبني

٤) ظاهرة الظهار

٥) ظاهرة الإيلاء

٦) ظاهرة الطلاق بغير عدد

ج – الاثار السياسية

١) وضعية المجتمع المكي قبل النبوة

٢) موقف المجتمع المكي من سلطان النبوة

٣) تغيير الموقف بعد فتح مكة

د – الآثار الاقتصادية

١) الاتجار بالربا

٢) الاتجار في الخمر

المحور الخامس : أثر النبوة على العالم

أ – تقديم

ب – بيعة العقبة الأولى والثانية

ج – عقد المواخاة بين المهاجرين والأنصار بالمدينة النبوية

د – وثيقة تنظيم العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب .

هـ – غزوة بدر، وأحد، والخندق : إشارات وأبعاد

و –غزوة الحديبية، وتحقيق عالمية الدعوة .

ز- رسائله إلى الملوك

١) رسالته صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم

٢) رسالته صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس

٣) رسالته صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة

٤) رسالته صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ملك مصر

ح-رسائله صلى الله عليه وسلم لرؤساء القبائل في الجزيرة

١- رسالته للحارث بن أبي شمر الغساني

٢- رسالته لهوذة بن خليفة

٣- رسالته لجيفر وعبدٍ ابني الجلندى

ط) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بمكة المكرمة .

١ – خطبة فتح مكة

٢ – خطبة حجة الوداع بعرفة

٣ – خطبة حجة الوداع بمنى

ي) – بعض ما تضمنه هذا الإعلان من مبادئ في حقوق الإنسان

– خاتمة في نتائج هذا البحث

***

المحور الأول : مقدمات ممهدات

أ – النبوة اصطفاء واجتباء

يغلط كثير من الأفدام – ممن رين على قلوبهم، وضُرب على قلوبهم بأسوار الجهل وحُجُب الجهالة – حينما يظنون أن النبوة تخضع للمقاييس المادية : من الجاه، والمال والوجاهة بين الناس، ونفاذِ الكلمة فيهم، وعلو المنزلة بينهم، ويَحْجون أن هذه مؤهلات، لايستحق النبوة إلا من اتصف بها كلها أو ببعضها، وغاب عن هؤلاء أن الموازين المادية ما هي إلا معايير أرضية، تتحكم فيها اعتبارات عديدة، وولاءات لا تنجو من وقوع الجور فيها، وإيثار عصبية على أخرى في أحسن أحوالها .

ثم إنها مبنية على نظرية أحادية، ورؤية انحيازية، وفكرة ضيقة، تقدم المصالح العاجلة، على المبادئ العالية، والأهدافِ السامية، والرُّؤى التي تجمع بين مطامح الدنيا، ومنافع الآخرة . ولذا فمثل هذه الموازين، جديرة في عدل الله وقضائه بالإلغاء وعدم الاعتبار، لأنها موازين جائرة، والربُّ سبحانه وتعالى رب الخلق أجمعين، وعدله ورحمته شاملة لهم جميعا بمقتضى ربوبيته وخلقه لهم، فليس له مع أحد نسب حتى يُدنيه، ولا مواطنةٌ حتى يقدمه، ولا صداقة حتى يُؤثره، ولا مصالح مشتركة حتى يعتبره، وإنما إحسانه يصل للجميع، ونفعه يستمتع به الجميع ﴿ ذلكم الله ربكم، فتبارك الله رب العالمين ﴾ [غافر – ٦٤] .

ولما كانت موازين أهل الأرض، شاطَّة عن العدل في الاختيار، حتى قال أكابر قريش ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ رد الله عز وجل عليهم بقوله :

﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾؟ [الزخرف – ٣١- ٣٢] منكرا عليهم هذا الاختيار الأحادي النظرة وبين تعالى أن النبوة تخضع لموازين العدل، والأهلية التي لا يعلمها إلا هو، قال تعالى : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، إن الله سميع بصير ﴾ [الحج ـ ٧٥] فأخبر أن الاصطفاء للنبوة، خاضع لعلمه بكل شيء من أمر الدنيا والآخرة، ولسمعه وبصره، فهو يرى من هو أهل ممن ليس كذلك، ويسمع نجوى النفوس التي لا يسمعها إلا هو، فهو أخبر بمن يقوم بهذا المنصب حق القيام ممن ليس كذلك .

وهذا كله يرد على الملحدين في قديم الزمان – ويمثلهم مشركو قريش – وعلى العلمانيين الجدُد الذين قلدوا من سبقهم في اعتبار النبوة ظاهرة من الظواهر البشرية، يتقمصها من كان ثاقب الذهن، قوي الحدْس، عبقريا في سياسة الناس وقيادتهم . متميزاً بخصائص نفسية لا توجد في غيره، يكتسبها بموهبته الفذة .

وهذه السفسطة التي لا رصيد لها، يردها أن النبي قبل النبوة، لا يعلم أنه سينبَّأ، بل يكون إنسانا عاديا بين قومه ورهطه، يمتاز عنهم، بالصدق، والأمانة والعفة والشجاعة والذكاء، وبعضُ هذه الصفات، قد توجد في بعض أفراد المجتمع الذي سيختارمنه للنبوة رجلٌ يعلمه الله أهلا لرسالته ونبوته، قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث

يجعل رسالته ﴾ [الأنعام – ١٢٤] وقال : ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾ [البقرة – ١٠٥]

وهذا الاختصاصُ نابع من علمه الشامل بما خلق، فهو أدرى بمن يقدر على تحمل أعباء أمره ونهيه، ممن تقترحه الموازين الأرضية، الخاضعةُ لعلم جزئي، ونظرةٍ جزئية، ورعاية مصلحة جزئية، ولهذا فالموازين الأرضية موازين طائشة لا تقدر أن تحقق في الوجود ما يتطلبه من توازن وانسجام، وصيرورة تتجه بكل شعبها وأطيافها إلى تحقيق الحق في الوجود: من عبادة الله وحده، وردِّ الأمر كله إليه وحده، ورحمة خلقه، والرأفة بهم بإذنه وأمره وحده، وأمرُ الوجود ومناطُه، يرتبط بحقيقة واحدة، إليها تؤول جميع حقائقه، ومنها تتشعب جميع مراتبه، وعلى أساسها يُفهم كل ما يقع فيه - غايةً، وبداية – من الأحوال وتقلباتها، والآمال وتجدداتها .

وهذه الحقيقة، تتجلى في كلمة " الحق" التي تعني الشيء الذي له مركز يشغله، فليس

خيالا ولا حلْما، ثم هو ثابت في نفسه وبنفسه لمن يرى بعين الاعتبار .

ولهذا المعنى سمى الله نفسه حقا فقال : ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل دان الله هو العلي الكبير﴾ [الحج ٦٢]

فتأمل كيف سمى نفسه الباقية حقا، وما عداها مما يؤول إلى الزوال والاضمحلال باطلا، لأن ما سواه لا وجود له بنفسه،

فقيامه قيام بغيره، فليس وجوداً ذاتيا، ووجودُه سبحانه وتعالى وحده، هو الوجود الذاتي، وهو المستحق أن يطلق عليه الحق.

والله تعالى يقول الحق، قال سبحانه ﴿ والله يقولُ الحقَّ وهو يهدي السبيل﴾ [الأحزاب ٤] وقال تعالى :" قالَ فالحقُّ والحَقَّ أقول " [ص ٨٤] وغيرُ هذا لا يتصور عقلا ولا وجودا، فمن كان حقا، فطبعي أن لا يقول إلا حقا، ولا يأمر إلا بالحق، وقد ألفنا في الصور المدرَكة لنا عيانا، أن منابت العز، لا تنبت إلا عزا، ومنابت الذلة لا تلد إلا ذلة، وأن الدِّفْلَى لا تلد إلا نوعها، وأن الحية لا تلد إلاجنسها، والتماثلُ في الطباع، يولد التماثل في الأحجام والأجسام .

والله تعالى يهدي للحق، قال تعالى : ﴿ قُل الله يهدي للحَقِّ أفمنْ يهدي إلى الحقِّ أحَقُّ أن يتّبعَ أمَّنْ لا يهِدِّي إلاّ أنْ يُهْدَى فما لكم كيف تحكمون﴾ [يونس – ٣٥] فانظر كيف أنكر على من اتبع غير من يهدي للحق، وكيف فرق بين من يهدى بذاته، ومن يهدى بغيره .

والله تعالى خلق السموات والأرض بالحق وللحق، قال تعالى: ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾[الأحقاف – ٣-].

والله تعالى سمى وحيه إلى أنبيائه حقا، فقال : ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف – ٤٣–] وقال عن صفيه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم :﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ﴾ [البقرة – ١١٩] وقال : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على

الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [التوبة -٣٣-] **وسمى كتابه القرآن الكريم حقا** فقال : ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ [البقرة ١٧٦] **ووعد عباده وعدا حقا،** فقال : ﴿ ألا إن وعد الله حق، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [يونس – ٥٥-]

وجاء الإقرار بهذه الحقيقة على لسان أعدى عدو للبشرية، وهو إبليس اللعين، فقد حكى الله عنه أنه يبلِّغ أتباعَه يوم الحقائق أن الله وعدهم وعدا حقا، فوفى بوعده، ووعدهم هو– لعنه الله – فأخلف وعده، قال تعالى : " وقال الشيطان لما قضى الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان ليَ عليكم من سلطانٍ إلا أنْ دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم " [إبراهيم ٢٢] فتأمل تلك المرارة التي سيتجرعها هؤلاء، حينما يجدون ما وعد الله به أعداءه ماثلاً للعيان من العذاب المقيم، وما وعد الله به من النعيم الدائم من أطاعه وعصى الشيطان ، معدا محضرا، وكلُّ ما وعدهم به اللعين : من أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ولا ثواب، ولا عقاب، أماني باطلة، وأحلام ضائعة، قال الحسن :" يقف إبليس يوم القيامة خطيبا في جهنم، على منبر من نار، يسمعه الخلائق جميعا "(١)

والله تعالى يقضي بالحق، دنيا وأخرى، قال تعالى :﴿ والله يقضي بالحق، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو

(١) الجامع لأحكام القرآن – ٩/٣٥٦/

السميع البصير ﴾ [غافر ٢٠] .

والله تعالى أمر الرسل أن يحكموا بالحق، فقال : ﴾ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ [ص – ٢٦] وقدأمره تعالى باجتناب الهوى، لأنه مضاد للحق، مناقض له، فلا يجتمعان أبدا، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان على حق، وهو صاحب هوى، كما لا يمكن أن يكون صاحبُ الهوى محقاً أبدا .

وقال تعالى لصفيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق، لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ [النساء – ١٠٥] أي بما أراك من الحق، وأخبرك به، وعلمك إياه .

فإذا كان الحق يشغل هذه المساحة الشاسعة في الوجود، فماذا بقي للضلال من المساحة يتحرك فيها ؟ لم يبق له شيء، وليس له إلا السطوُ على مواقع الحق حينما تخلو من حماة الحق المنافحين عنه، الذائدين عن حياضه، المعلنين حربا ضروسا على الباطل وأهله، لإدراكهم أن الوجود

١) والموجودات لا تصلح ولا تنصلح إلا بالحق وعلى الحق، وأيُّ انحراف عن الحق، فإنه يؤول إلى الفساد في الكون بعد إصلاحه بالحق قال تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ [الأعراف ٥٦] فبعثةُ الرسل حق، وإنزال القرآن حق، وبهما انصلحت الأرض، فالانحرافُ عنهما انحراف عن الحق، وجنوح إلى الفساد بعد إصلاح، وذلك جُرم عظيم، وعصيان غليظ. يستحق فاعله عذابا مضاعفا .

ب ـ النبوة ضرورة فطرية :

إذا كانت الفطرة، تشْرَئِبُّ للإجابة عن سؤال مبدإ الإنسان ونهايته، وجزائه، فإن النبوة هي التي تجيبها عن ذلك، وتفصل لها فيه تفصيلا لا يدرك بالعقل، ولا مجال فيه للتخمين .

ولما كانت الفطرة قابلة للتشكل، والتغير من حال الإقرار بالربوبية بالقوة والاستعداد، إلى حال الإقرار بها بالفعل والمزاولة، فهي تحتاج للنبوة في حال المزاولة الفعلية – التي هي أكمل الأحوال ـ لعبودية رب العالمين، الخالقِ للفطرة السوية، إذهي التي تنمي تلك الفطرة،وتعلمها مجالات العبودية، ومقالاتها، وما يُقبل منها مما لا يقبل قال تعالى : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ [البقرة ١٥١] فمهمة الرسل، التزكية للفطرة، ونقلها من حال الكمون إلى حال الفعل الممارَس، فبالتعليم يتعلم المرء ما جهله من دروب الواجبات، المفعولة، والمنهيات المتروكة.

والعبادة تحتاج للعلم بالمعبود، وبم يعبَد، وكيف يعبد، فهذه الأركان الثلاثة لا تُتلقى تفاصيلها إلا من مشكاة النبوة، فصح أن الفطرة بحاجة ضرورية للنبوة .

والفطرة وإن كان لها استعداد للخير مبدئيا، وميلٌ للإسلام، وانطباع به، إلا أنها أيضا قابلة أن تنحرف عن ذلك، وتسلك مسالك الفطَر المنكوسة، فتختار غير الإسلام بفعل فاعل، أو بعامل من العوامل يحملها على ذلك، وهذا جلي في قوله صلى الله عليه وسلم

من حديث أبي هريرة : " ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتَج البهيمة بهيمةً جمعاء هل ترون فيها جدعاء ؟" وقرأ أبو هريرة : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ [الروم ٣٠-] (١)

فهذا الحديث نص في أن فطرة الإسلام، هي التي فُطِر عليها كل مولود، سواء ولد من أبوين مسلمين أو كافرين، ثم يكون التدخل في تغييرها إما من الأبوين، أو غيرهما ممن في منزلتهما :من المربين، وأصدقاء السوء، والمذاهب والأفكار الهدامة، فكلها تجرِف عن هذه الفطرة، وتصرف عنها إلى اعتناق اليهودية، أو النصرانية، أو الشيوعية، أو الوجودية، أو ما سواها من المذاهب المناقضة لدين الإسلام .

وهذه الفطرة إذا خُلّي بينها وبين الأديان فلن تختار غير الإسلام، ولن تقيل سواه .

إذن هذا الاستعداد الفطري، لا يكفي وحده الإنسان، ولا يصير به مسلما، ما لم يدعَّم بالعلم النبوي، وقفْوِ الطريقة التي يحددها الأنبياء، فبها يكون الإنسان مسلما حقا، وفعلا وواقعا، وذلك كله يؤكد، أن النبوة ضرورة فطرية للإنسان .

قال ابن تيمية – رحمه الله – " فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقا به، ودينا له، لكن يعرض لها من يفسدها، ومعرفة

(١) البخاري في التفسير – ٣٧٨/٨/

الحق تقتضي محبته، ومعرفة الباطل، تقتضي بغضه، لما في الفطرة من حب الحق، وبغض الباطل، لكن قد يعرض لها ما يفسدها، إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق، وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه، فالله تعالى فطر عباده على محبته وعبادته وحده، فإذا تُركت الفطرة بلا فساد، كان القلب عارفا بالله، محبا له، عابدا له وحده، لكن تفسد فطرته من مرضه، كأبويه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، وهذه كلها تغير فطرته التي فطره عليها، وإن كانت بقضاء الله وقدره، كما يغيَّر البدن بالجدع، ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله تعالى لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة، والرسلُ صلى الله عليهم وسلم بعثوا لتقرير الفطرة، وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها، وإذا كان القلب محبا لله وحده، مخلصا له الدين، لم يبتَلَ بحب غيره أصلا، فضلا أن يبتلى بالعشق، وحيث ابتُلي بالعشق، فلنقص محبته لله وحده ".(1)

وقال ابن القيم : " فالفطرة مركوز فيها معرفتُه، ومحبته، والإخلاص له، والإقرار بشرعه، وإيثاره على غيره، فهي تعرف ذلك، وتشعر به مجملا ومفصلا بعض التفصيل، فجاءت الرسل تذكِّرها بذلك، وتنبهها عليه، وتفصله لها، وتبينه، وتعرِّفها الأسبابَ المعارضة لموجب الفطرة، المانعةَ من اقتفائها أثرها، وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسل، فإنها أمر بمعروف، ونهي عن منكر . . . وهذا كله مركوز في الفطرة، وكمال تفصيله وتبيينه، موقوف على

(1) مجموع الفتاوى – ٥٢٨/٧/ و- ١٠/ ١٣٥/١٣٤/

الرسل، وهكذا باب التوحيد وإثبات الصفات، فإن في الفطرة الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه للخالق سبحانه، ولكن معرفة هذا الكمال على التفصيل مما يتوقف على الرسل . . . " (١)

وقال الشيخ جمال الدين القاسمي : " لأن الشعور بوجود الله تعالى، والإذعان لخالق قادر فوق المادة، محيطٍ من وراء الطبيعة، أمر غريزي في الإنسان، مفطور عليه لا تغيره رِيَب المرتابين، ولا تزلزله شكوك المشكِّكين، لأنه عقد في المرء، طبع عليه جَنانه، وتأثر به لسانه وبيانه . . . فما بعثت الرسل إلا للتذكير بتوحيد الفطرة، وتطهيرها عن تسويلات الشيطان، بالاستدلالات النظرية، والدلائل العقلية، وبها توجهت التكاليف على العقلاء " (٢)

وقال الراغب :" من أشرف ثمرة العقل،معرفةُ الله تعالى، وحسن طاعته،والكفُّ عن معصيته، فمعرفة الله العامية، مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول، وأن له فاعلا فعَله، ونقله من الأحوال المختلفة، وهي المشار إليها بقوله تعالى :﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ وبقوله : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ [البقرة ١٣٨] وبقوله : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ الآية [الأعراف – ١٧٢] فهذا القدر من المعرفة، في نفس كل واحد، ويتنبه الغافل إذانُبِه عليه، فيعرفه كما يعرف أن من هو مساولغيره، فذاك الغير مساوله " (٣)

---

(١) شفاء العليل - ٢/٣٣٣/

(٢) دلائل التوحيد – ٢٣/٢٤/٢٦/

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة - ٢٤.

ج-النبوة ضرورة إنسانية ودينية

مما لا ريب فيه أن الإنسان مدني بطبعه، يسعى لتحصيل مصالحه، وتثبيتها ودرء المفاسد وإزالتها، وهذه المصالحُ المتوخاة، والمفاسد المتوقاة، لا يدركها العقل البشري بكاملها، ولا يحيط بتفاصيلها وأجزائها، ولو طالت تجربته، وربَت خبرته، وتمرَّست حنكته، لأن تفاصيل المصالح والمفاسد تتجدد وتتشابك، ويلتبس بعضها ببعض، وتتقارب أحياناً في الأشكال، والأوصاف والمقادير، فينشأ عن ذلك الاشتباهُ، ويتعذر التمييز والانتباه ويستعصي تخليص الصالح من الطالح، والضار من النافع .

والعقل مهما سما بما آتاه الباري من قُدَر النفوذ إلى بواطن الأشياء، واكتشافِ أكناهها، فإنه لا يقدر على إدراك ذلك بتفاصيله في كل شيء، وما ذاك إلاَّ لأن قدراته محدودة، والمحدود لا يحيط بغير المحدود المتجدد في كل آن ومن هنا فلا بد من شيء آخر يُتمّ للعقل معرفته، ويفتح له ما لعله قد استغلق عليه، ويوضح له ما لعله قد انبهم عليه، ويزيل أميته فيما يقف فيه مشدوهاً، خائر القوى .

وهذا الشيءالمحتاج إليه في التفاصيل، هو النبوة، فالأنبياء هم للعقول كالماء النازل على أرض قاحلة، فاهتزت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ومعارفُهم وعلومهم الإلهية، هي التي إزاحت الستار للعقل عن الحقائق، فشاهدها مشاهدة العيان، ولمسها لمس المتمكن من ناصيتها وذواتها، وعرف تفاصيلها وأجزاءها .

والعقل بلا شرع، كبيت بلا زرع، والعقلُ الذي لم يستنر بنور

النبوة، لا يستطيع أن يميز بين الجوهر والمظهر، والحقيقةِ و الخيال، بل كثيرًا ما يتأثر بالمظاهر – التي لا تشي بالحقيقة، ولا تدل عليها – فيغتر بها ويتبعها، فيقع فريسة لظنون كاذبة، يخالها حقائق مسلمة، وأوهامٍ سانحة، يعدها براهين قاطعة، فيستسلم لها، ويسْلِم نفسه إليها، ولم يستفق إلا بعد فوات الأوان، وضياع زهرة عمرمديد في القيل والقال .

ومن هنا فالنبوة ضرورة اجتماعية إنسانية، لا تتحقق الكرامة الآدمية إلا بها ولا تتمكن الإنسانية المستخلَفة، إلا بتعاليمها، إذ يُتصور أن توجد مجتمعات بشرية بدون نظام يسودها، ولا قانون واضح يُرجع إليه في تصرفاتها وأنماط حياتها، ولكنه لا يوجد مجتمع لا يؤَلِّه شيئا، ولا يعتقد شيئا، ولا يتجه لشيء، ولا يقدس شيئا، فهذا التألهُ فطري في الإنسان، ومن ثم فلكل أمة دين تدين به، سواء كان حقا أو باطلا، وهذا يستدعي ضرورة بعث الأنبياء لبيان الدين الحق من الأديان الباطلة، وبيان المحجة الواضحة، من سبل الشيطان وطرائقه، ليتميز النُّضار من البهرج، والأصيلُ من الدخيل، والأنبياءُ هم رواد هذا التمييز، وهم أطباء النفوس، يطهرونها من أدناس وأرجاس الجاهلية، ويرفعونها إلى مقامات الطهارة المادية والمعنوية .

د –مكة المكرمة : الدلالةُ والتسمية

مكة، مأْسِرُ الأفئدة، وموئل الرغبات، ومعدن التصفية والتربية، ومهبط الوحي الإلهي، ودار السعادة والعبادة،

ولمكانة مكة وقدسيتها وحرمتها عند الله، وكبر منزلتها عنده، سماها بأسماء عديدة في كتابه – وكثرةُ الأسماء، تحمل في طياتها تعدد الأوصاف التي يحمد عليها المسمَّى، فالله عز وجل لما كثرت نعوته التي يحمد عليها، سمى نفسه بتسعة وتسعين اسما، وكلٌّ اسم من أسمائه تعالى، هو اسم وصفة، يختلف عن غيره في مدلوله ومعناه، ورسولُه صلى الله عليه وسلم لما كثرت خصاله الحميدة، وشمائله الفريدة، تسمى بأسماء، كل منها اسم وصفة، ففي حديث جبير بن مطعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد " (١)

والبيتُ الحرام من هذا اللون وهاك الصنف، فله أسماء عديدة، فمن أسمائه "بكة" قال تعالى: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ [آل عمران – ٩٦]

وسميت بذلك، لأنها مشتقة من البَكِّ، وهو الازدحام في موضع الطواف والسعي، وقيل " من البك " الذي هو دق العنق، وكانت تَدق رقاب الجبابرة، إذا ألحدوا فيها بظلم . قال ابن الزبير : "لم يقصدها جبار، قط بسوء، إلا وقصمه الله عز وجل " (٢)

ومن أسمائها أيضا، " مكة " وهو أكثر انتشارا من غيره،

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب – ٥٤٤/٦/ الفتح - ومسلم في الفضائل حديث - ١٨٢٨-

(٢) انظر تفسير القرطبي - ١٣٨/٤/

قال تعالى : ﴿ هو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم، وكان الله بما تعلمون بصيرا ﴾ [الفتح – ٢٤] و" مكة " هي "بكه " فالميم على هذا مبدلة من الباء، كما يقال : طين لازب ولازم . وفرق ابن شهاب الزهري بينهما ، فقال : " بكةُ " المسجد ، و"مكةُ" الحرم كله، تدخل فيه البيوت " (١)

وخالفه مجاهد والضحاك فقالا : " بكة " هي " مكة "، وهذا القول هو الصحيح، إذ لا دليل لغة ولا شرعا على هذه التفرقة.

ومكة اشتقت من "المك " يقال : مكَكت العظم إذا أخرجت ما فيه، فمكة تمُك المخ من العظم، مما يَنال قاصدها من المشقة . وقيل:من "مكّ" الفصيل ضرع أمه، إذا امتص كل ما فيه من اللبن، فسميت مكةُ مكةَ، لقلة مائها (٢) وقيل:لأنها تمك من ظلم فيها، أي تهلكه وتنقصه (٣)

ومن أسمائها أيضا : أم القرى، قال تعالى : " وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها " [الأنعام – ٩٢] وقال : " وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها " [الشورى - ٧] وقال : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا﴾ [القصص- ٥٩]

قال السدي : " أما أم القرى فهي مكة، وإنما سميت أم

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣/٤/٩/١٠/١١/

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٥/٢٧٢/

(٣) انظر تاريخ مكة للأزرقي – ١/٣٢/ وتفسير ابن جرير –٣/٤/٨ /

القرى، لأنها أول بيت وضع بها " [١] وقال قتادة : " بلغني أن الأرض، دحيت من تحتها " [٣]

ونقل أيضا أن الأرض دحيث من تحتها عن عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عباس، وليس في ذلك شيء مرفوع إلى المعصوم صلى الله عليه وسلم ممن يوجب الحجة والاعتماد، ويغلب على الظن أن يكون هذا مما تلقاه عبد الله بن عمرو، وابن عباس من كتب أهل الكتاب، مما يجوز التحدث به، إذ ليس في شرعنا ما يؤيده ولا ما ينفيه .

وقال ابن كثير : " وسميت مكة أمَّ القرى لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها . . ." [٢]

وهذا القول هو الصواب في هذه التسمية، لأن أم كل شيء، هو أصلُه وأساسه الذي يرجع إليه، والأصل أشرف من الفرع، ولذا فمكةُ، أشرف من كل قرية على وجه الأرض بالاتفاق، إلا المدينة وحدها، فلمالك بن أنس – رضي الله عنه - فيها رأي، ذهب فيه إلى تفضيلها على مكة، وأدلة ذلك ليس هذا مجالَ تفصيلها .

ومن أسمائها أيضا القرية، قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون ﴾ [النحل ١١٢] وقال : ﴿ وكأين من قرية، هي أشد قوة من

---

(١) انظر تفسير ابن جرير /٥ / ٢٧٢ /

(٢) تفسير القرآن العظيم – ١٧٩/٧/

قريتك التي أخرجتك، أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ [محمد- ١٣]

والقرية في الآية الثانية، هي مكة بلا خلاف، واختلف في المراد بها في آية النحل، فجزم ابن جرير بأنها مكة، ونَقل بإسناده ذلك عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد .

ونُقل عن حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها المدينة، إذ لما بلغها أن عثمان محصور في المدينة _ وهي صادرة عن الحج _ قالت :" والذي نفسي بيده إنها القرية – تعني المدينة – التي قال الله فيها : ﴿ وضرب الله مثلا قرية . . .﴾ الآية (١)

وهذا القول ضعيف، لأن الآية المذكورة مكية، وقد نزلت بدهر قبل حصر عثمان، والقريةُ التي كانت في رغد العيش، فكفر ت بأنعم الله، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم على أهلها، حتى أكلوا الجيف ، هي مكة، ففي الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا قريشا، كذبوه، واستعصوا عليه، فقال : " اللهم أعِني عليهم بسنين كسني يوسف " فأصابهم جهد وقحط، حتى أكلوا العظام، والجلود، والميتة، وكان يقوم أحدُهم، فيرى بينه وبين السماء مثل الدخان، من الجهد والجوع، فأتاه أبو سفيان، فقال : أي محمد، إن قومك قد هلكوا، فادع الله أن يكشف عنهم، فدعا، فأنزل الله : " فارتقب يوم تأتي السماء، بدخان مبين" . . . إلى قوله : ﴿ إنكم عائدون ﴾

(١) تفسير ابن جرير ٩/٨/ ١٨٦/ [الدخان – ١٦]

[الدخان – ١٠_١٥] فلما أصابتهم الرفاهية، عادوا إلى حالهم فأنزل الله عز وجل : " يوم نبطش البطشة الكبرى إنامنتقمون"

قال : " يعني يوم بدر ".[1]

فهذا الحديث قاطع للنزاع في أن المراد بالقرية، هي مكة، وتنزيل حفصة – رضي الله عنها – الآيةَ على ما وقع في المدينة : مِن حصرِ عثمان ومقتله، إنما هو من تشبيه حال المدينة بحال مكة ولا تريد أن الآية نزلت بشأن ما وقع بالمدينة، ولا ينبغي نسبة ذلك إليها فهماً، لاستحالته وفساده، وهي – رضي الله عنها – أفقه من أن تريد ذلك .

ومن أسمائها أيضا، المسجد الحرام، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾[التوبة ٢٨]

وقال :﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ﴾ [الإسراء - ١]

وقال : ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ [البقرة ١٩٦]

والآيتان الأوليان، ظاهرتان في أن المراد بالمسجد الحرام، مكة كلها، فهي تسمى المسجدَ الحرام، لأن المشركين يمنعون من دخول الحرم كله، لا من دخول المسجد وحده، ولأن الصيام لمن ليس

(١) أخرجه البخاري في التفسير – الفتح /٨/٤٣٣/٤٣٤/٤٣٥/ وفي الاستسقاء –٢/٥٧٢/٥٩٢/

لـه نـسك في الحـج، خـاص بغـير أهـل مكـة إذا تمتعـوا ولم يجـدوا مـا استيـسر مـن الهـدي، وأمـا أهـل مكـة فـلا يجـب علـيهم مـن الـصيام مـا يجـب علـى الآفـاقي، ولـيس المقـصود بقولـه : "حاضـري المـسجد الحـرام " مـن كـان بجانـب المـسجد، وإنمـا المقـصودُ أهـل مكـة كلـهم، فـالحكم يـشمل مـنهم مـن كـان قريبـا مـن المـسجد، ومـن كـان نائيـا عنـه، وأمـا الآيـة الثالثـة، فـإذا بنينـا علـى روايـة أنـه صـلى الله عليـه وسـلم أُسـري بـه مـن بيـت أم هـانئ، فهـي مثـل الأولى والثانيـة في الدلالـة، وأمـا إذا بنينـا علـى روايـة أنـه أسـرى بـه صـلى الله عليـه وسـلم مـن الحِجـر، فالمقـصود بهـا المسجد خاصة، وليس الحرمَ كله .

وإلى العمـوم ذهـب ابـن جريـر في الآيـة الأولى بقولـه : " وإنمـا عـني بـذلك مـنعَهم مـن دخـول الحـرم، لأنهـم إذا دخلـوا الحـرم، فقـد قربـو ا المـسجد الحـرام " ونقـل بإسـناده عـن عطـاء، أنـه قـال: "الحـرم كلـه قبلـة ومسجد . . . لم يَعن المسجد وحده، وإنما عَنى مكة، والحرم " (١)

وقـال القـرطبي في قولـه تعـالى :"فـلا يقربـوا المـسجد الحـرام " :" هـذا اللفـظ يطلـق علـى جميـع الحـرم، وهـو مـذهب عطـاء، فـإذن يحـرم تمكـين المـشرك مـن دخـول الحـرم أجمـع، فـإذا جـاء رسـول مـنهم، خـرج الإمام إلى الحل ليسمع ما يقول . . . " (٢)

وأمـا آيـةُ الإسـراء، فقـال ابـن جريـر : وأمـا قولـه : " مـن المـسجد الحـرام " فإنـه قـد اختلـف فيـه وفي معنـاه، فقـال بعـضهم : يعـني مـن

(١) تفسير ابن جرير /مج/ ٦/ ج/١١/ ١٠٥/ ١٠٦/

(٢) الجامع لأحكام القرآن - ١٠٤/٨/

الحرم، وقال : الحرم كله مسجد . . . وقد ذُكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى، نائما في بيت أم هانئ بنت أبي طالب " (١)

قلت : وأما على رواية أنه نائم عند البيت، فأسرى به من عندها ، فلا يتم الاستدلال بالآية على أن المسجد الحرام، هو الحرم كله ، والمسألةُ تحتاج إلى النظر في مخارج الروايات المتعددة في موطن الإسراء، هل هو عند البيت أو بيت أم هانئ ، للترجيح، أو الجمع بينها

ورجح ابن كثير في تفسيره أن المراد بـ"المسجد الحرام" في آية الإسراء، هو مسجد مكة . (٢) وعلى هذا لا يتم الاستدلال بالآية على أن المسجد الحرام اسم من أسماء مكة كلها .

ومن أسمائها أيضاً : البلد ، و البلدة ، و البلد الأمين، قال تعالى : ﴿لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ﴾[البلد ١- ٢] وقال: " إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء [النمل ٩١] وقال : ﴿ والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين﴾ [التين ١/٢/٣/] واتفق المفسرون على أن المراد بالبلد ، والبلدة في هذه الآيات، هو مكة ، كما حكاه القرطبي .

وقال في قوله تعالى : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾: " يعني مكة ، سماه أمينا ، لأنه آمن " كما قال :" أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا "

---

(١) جامع البيان – ج/٩/ج/١٥/٢/

(٢) تفسير القرآن العظيم – ٥/٣/

[العنكبوت – ٦٧] فالأمين يعني الآمن، قاله الفراء وغيره . . . " [١]

وهناك أسماء أخرى، كلها ترجع إلى أوصاف، قد استوعبها الصالحي في السيرة [٢]

وأما البيت بالخصوص، الذي بداخل المسجد الحرام، فله أسماء عديدة، وهي أيضا أوصاف، تدل على شرف البيت، وسمو مقامه عند الله عز وجل،

وأسماؤها هي : الكعبة : البيت العتيق : البيت الحرام، وكلها في القرآن، قال تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد﴾[المائدة – ٩٧]

وقال : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة﴾ [المائدة – ٩٥]

وقال : ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ [الحج – ٢٩] وقال : " ثم محلها إلى البيت العتيق " [الحج – ٣٣].

هذا، وقد أضاف الله تعالى البيت لنفسه في قوله : ﴿ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ [الحج – ٢٦] وأضافها إليه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ [إبراهيم ٣٧] للدلالة على شرفها، وعظم منزلتها عنده.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن /٢٠ _ ١١٣ /

(٢) سبل الهدى والرشاد - ١/ ١٩٤ - ٢٠٠ /

هـ: تعليل هذه التسمية:

وصفت مكة بالتحريم، لأن الله عز وجل حرم فيها أن تلتقط لقطتها، وأن يقطع شجرها، وأن ينفَّر صيدها، وهذا ليس لبلد سواها إلا المدينة التي تشاركها في هذا التحريم، كما حرم فيها الهمّ بالظلم، فضلا عن ارتكابه، وجعل من لجأ إليها آمنا، وإن كان ذا جناية حتى يخرج منها، وحرم فيها الظلم بكل صنوفه، وجعله فيها مضاعف الإثم، عظيم الوزر، قال تعالى: ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ [الحج ٢٥] أي ومن يهمَّ فيه بإلحاد بظلم، فلما ضَمَّن " يُرِدْ " معنى " يَهُمَّ " عدي بالفاء، للدلالة على أن مجرد الهم في مكة بالظلم، يستوجب العذاب الأليم، فما بالك بمن ارتكبه فيه بالفعل، فلا ريب أن إثمه مضاعف .

وهذا ليس لبلد آخر، فغاية ما فيه أن من اقترف سيئة، تكون سيئة واحدة، ومن هم فيه بسيئة، لم تكتب عليه حتى يجترحها .

والغرضُ بذلك كله، تعظيمُ حرمتها، وإعلاءُ مكانتها، وتقديس جنباتها، وشعورُ من دخلها أنه في أمان تام، فالسُّوقة والملوك فيها على حد سواء، لا يزعج فيها أحد، ولا يقوم فيها أحد علىأحد، ولا يستذَل فيها أحد، فالناس فيها كلهم متوجهون للواحد القهار، غنيهم وفقيرهم، ورئيسهم ومرؤوسهم، وعالمهم وجاهلهم، وكلهم فيها في ضيافة الرحمان .

وهذه الخصوصية، كانت لمكة، منذ أن خلق الله السموات

والأرض، ففي حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة :"إن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . . . لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمعرف ولا يختلي خلاه . . . " (١)

وهذا لا يعارضه ما جاء في حديث عبد الله بن زيد بن عاصم وغيره، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها، ومُدِّها، بمثلَيْ ما دعا به إبرهيم لأهل مكة " (٢)

ذلك أن تحريم الله لمكة، معناه أنه حكم بذلك أزلا، وقضى به، وجعله أمرا محتوما، وأظهره

لعباده على لسان إبراهيم بلسان المقال، وقبل إبراهيم كان كل من أراد مكة بسوء، دمره الله، فعرف الناس من ذلك بالعادة أن لهذه البقعة شأنا .

قال الحافظ في الفتح : "المعنى أن إبراهيم حرم مكة بأمر الله تعالى لا باجتهاده، أو أن الله قضى يوم خلق السموات والأرض أن إبراهيم سيحرم مكة، أو أن المعنى : أن إبراهيم أول من أظهر تحريمها بين الناس، وكانت قبل ذلك عند الله حراما، أو : أول من أظهره بعد الطوفان . . ..".

(١) أخرجه البخاري في جزاء الصيد – ٥٦/٣/ ومسلم في الحج /٩٨٦/٢/ ح/ ١٣٥٣/

(٢) مسلم في الحج - ٩٩١/٢/ح/١٣٦٠/

قلت : والأظهر الجواب الأول والثالث، وأما التالي فهو ضعيف، لأنه يقتضي أنها لم تحرم حتى حرمها إبراهيم، والنص واضح في خلاف هذا، فتنبه . وهذا التحريم، ليس لبلد آخر، سوى مكة والمدينة النبوية، وليس في الدنيا بقعة ينطلق عليها أنهما حرم الله ورسوله سواهما، وكثير من العوام والخطباء الذين لا علم لهم، يلحقون بهما المسجد الأقصى، ويقولون في خطبهم أو أحاديثهم عن القدس : أولى القبلتين، وثالث الحرمين .

وهذا منهما جهل، فالمسجد الأقصى وما حوله مبارك بنص قوله تعالى " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله " [الإسراء – ١] ولم يرد نصٌّ ولا إجماع على أنه حرم، كما في مكة والمدينة، والفضائلُ والخصوصيات لا تثبت إلا بنصوص .

و ـ لماذا بعث جميع الأنبياء في جزيرة العرب، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم خاصة في مكة ؟

هذه المسألة لها صلة بالاختيار الإلهي، فما يعلمه الله عز وجل عن الجزيرة وأهلها من أسرار، هو من خصائص ربوبيته، وحكمته، لذا جعل الجزيرة موئل رسالته ونبوته، قال تعالى : " الله أعلم حيث يجعل رسالته " [الأنعام ١٢٤] وهذا الاختيار، به يقع التفضيل بين المخلوقات، فقد اختار الله تعالى مكة والمدينة على ما سواهما من البلدان، واختار الأنبياء على سائرالناس،واختار محمدا صلى الله عليه وسلم من بين الأنبياء، واختار أمته على سائر الأمم، لعلمه السابق

فيهم أنهم أهل لتحمل رسالته، قال ابن القيم : " ، إذا تأملت أحوال هذا الخلق، رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه، دالا على ربوبيته تعالى ووحدانيته، وكمال حكمته، وعلمه، وقدرته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره، فهذا الاختيارُ والتدبير، والتخصيص المشهودُ أثره في هذا العالم، من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله، وصدق رسله . . . " (١)

وإذا كان لله تعالى في هذا التخصيص حِكَم، فلن نعدم إدراك بعضها، وإن كان ما غاب عنا منها أكثر مما هو معلوم لنا .

ومن المعلوم المقطوع به، أن كل ملة وديانة، تقوم على دعامتين اثنتين : الأولى : فهم تلك

الملة والديانة فهما سليما، والثانية تطبيقه حرفيا كما فُهمت، دون تلكّؤ ولا إبطاء .

ولا ريب أن العرب أقدر على تحقيق هاتين الدعامتين من غيرهم، ذلك أنهم أحد الناس أذهانا، وأنقاهم سريرة، وأغوص على المعاني، وأوعب لمجاري الكلام، ولسانُهم ليس في ألسن العالمين أوسعُ منه، وأكثر معني وأقدرُ على التلون والسعة في التعبير والمحاورة، وأرصفُ في المباني، وألطف في الألفاظ، وأدق في الوصف، وأرعى لمقتضيات المقامات، وأطوع منه فى التعبير على مكنونات الصدور،

---

(١) زاد المعاد – ١/٤٢/

فلو نزل القرآن في أمة غير العرب، لكان فهمهم له فهما مشوَّها، معيبا، وكان التطبيق غير سليم ولا صحيح، وهذا ينافي حكمة الله عز وجل الذي أراد إصلاح البلاد والعباد بهذه النبوة وبهذا القرآن، ولهذا كان النبي عربيا، والقرآن عربيا .

والعرب لما كانوا منعزلين في جزيرتهم، كانوا بمعزل عن الفلسفات، والتلوثات الفكرية التي أصيب بها الأمم الأخرى من فرس، وروما ن، فتلك الفلسفات لم تَذَر لأصحابها شخصية فذة، ولا أبقت فيهم نخوة، ولا ربَّت فيهم صدقا، بل أفسدتهم وجعلتهم قابلين للتقلب مع كل حدث . وهذا النوع من البشر، لا يصلح لتحمل الرسالة العالمية، لأنه أولا، ليس مستعدا للإسراع في تطبيقها، لما نشأ عليه من فلسفات لا تترك له حرية اتخاذ القرار بسرعة، كما أنه نشأ على أن يقيس كل أمر بمقاييس المصلحة والمفسدة المادتين، ومن كان هكذا، فلن يضحي أبدا في سبيل المثُل العليا، ولن يعيرها اهتماما إذا عارضت مصالحه الآنية .

والمبادئ النبيلة، تحتاج دائما لنفوس لا تنتظر في طريق تحملها مصالح آنية، وإنما تتحملها مقابل الجزاء الأخروي، وقد كان في العربي خصال مفقودة في الأمم الأخرى، كالصدق، والشجاعة، والسخاء، والكرم، ورفضِ الظلم، وعشق الحرية، والدفاع عما يقتنع به بكل ما يملك .

وهذه كلها مؤهِّلات تحتاج إليها الرسالة الإلهية، ولا توجد في غير العرب لذا اختارهم الله لحمل أعباء هذا الدين، واختار جزيرتهم لنزول هذه الرسالة .

المحـــور الثـاني

حـالـة المجتمـــع المكـي قبـــل النبوة

أ – الحالة السياسية :

لم يكـــن العـــرب في بـــلاد الحجـــاز ومـــا حولهـــا ينـــضوون تحـــت كيـــان سياســـي يوحـــدهم ويهـــتم بـــشؤونهم، ويقـــيم لهـــم دولـــة ذات هيبـــة وســـطوة وســـلطان، ويحمـــيهم مـــن أطمـــاع غيرهـــم فـــيهم، وإنمـــا كـــانوا تكـــتلات قَـــبَلية تنطـــوي علـــى نفـــسها وتهـــتم بمـــصالحها الخاصـــة بهـــا، وإن كانـــت علـــى حـــساب مـــصالح القبائـــل الأخـــرى، وكـــان عامـــل القـــوى، هـــو الحاســـمَ في تفـــوق قبيلـــة علـــى أخـــرى، وكـــان الفـــرد في كـــل قبيلـــة، شـــديدَ التعـــصب لقبيلتـــه وأفرادهـــا، وإن أدى بـــه ذلـــك إلى أن يظلـــم غـــيره، وأن يحاربـــه لأتفـــه الأســـباب، فـــالفرد مـــع قبيلتـــه، ظالمـــةً كانـــت أو مظلومـــة، عادلـــة، أو جـــائرة، يتغنـــى بأمجادهـــا، ويـــذوذ عـــن حياضـــها، ولا يهمـــه مـــا سوى ذلك، وفي هذا المعنى قال قائلهم :

وما أنا إلا من غزيةَ إن غوَت ❖❖❖ غوَيتُ، وإن تَرشُدْ غزيةُ أَرشُدِ

وأدى بهـــم هـــذا التعـــصب إلى إغـــارة بعـــضهم علـــى بعـــض، وإلى النهـــب والـــسلب واســـتباحة الحرمـــات وكـــان القتـــال دائـــرا بيـــنهم علـــى أشـــده، ولا يتوقفـــون عنـــه غالبـــا إلا في الأشـــهر الحـــرم، وإذا لم يلائمهـــم تـــرك القتـــال فيهـــا، أرجؤوهـــا إلى أشـــهر أخـــر، لثـــارات بيـــنهم، وإحـــن، ومفاخرة،ومبـــارزة . هكـــذا كـــان شـــأنهم، شُـــغلوا عـــن أنفـــسهم بأنفـــسهم، وأطمعـــوا أعـــداءهم مـــن الفـــرس والرومـــان، واليهـــود فـــيهم، فكـــانوا

يتدخلون في شؤونهم، ويزيدون إيقادا لنيرانهم، ليضعفوهم، ويتحكموا فيهم، ويستعملوهم في مآربهم الخاصة .

وكانت أشهر المدن، التي لها هيبةٌ في نفوسهم، وتقدير واحترام، هي مكة والمدينة النبوية – ويسمونها يثرب – والطائفُ، وكانت مكة المكرمة، أعظمها أثرا في نفوسهم، لأن فيها بيت الله، وقد توارثوا ذلك من ديانة إبراهيم عليه السلام، ومكةُ التي فيها بيت الله، وسكانها في جواره، كان المفروض أن يكون فيها ساكنةٌ عادلة، نظراً لهيبة المقام في نفوس جميع العرب، ورئاسةٍ معنوية يمارسها سكان مكة على جميع العرب، فهي قبلتهم في الملمات، وموئلهم في الخصومات، وملجؤهم في الغارات، ومع ذلك، فمكة يمارس فيها الإقطاع في أبشع صوره .

وقد كان المجتمع المكي مكونا من ثلاث طبقات :

طبقة السادة، وهم قلة – كأبي جهل، وأبي لهب، والوليد بن المغيرة وأندادهم – وهؤلاء هم المستفيدون، وهم المترفون، المنعمون، وأرباحُ التجارة المكية من خلال رحلتي الشتاء والصيف تؤول إليهم .

وطبقة العبيد، وهم كثرة، وهؤلاء ليس لهم من الأمر شيء إلا طاعة السادة وخدمتهم، والرضا بفتات موائدهم .

وطبقة الفقراء الأحرار، الذين ليس لهم من الأمر شيء، إما لضعفهم، وإما لانعدام عصبية لهم يتقوَّون بها .

وبالجملة فالكل في خدمة السادة عن قرب أو بعد، وهذا لا

يعني أنه ليس هناك نفوس تتوق للعدل، وتشمئزمن ظلم، وتسعى في مصالح الضعفاء، فقد كان هناك أشخاص ذوو نفوس زكية، ولكنهم قلة، وصوتهُم خافت، ليس لهم من عصبية العشيرة، ونفوذ المال ما يمكنهم من تنفيذ ما يؤمنون به . **وأفضل أهل مكة**، طائفةٌ تتولى خدمة الكعبة، وتسقي الحجيج، وتطعمهم، وتعمر المسجد الحرام – مع ما فيه من الأصنام، والوثنية والشرك – وكانت وظائفُ البيت بعد إسماعيل عليه السلام في قبيلة جرهم، ولما طال عليها الزمن "بغت بمكة وأكثرت فيها الفساد، وألحدوا بالمسجد الحرام، فلما أكثرت جرهم البغي بالبلد الحرام، تمالأت عليهم خزاعة الذين كانوا نزلوا حول الحرم .. واجتمعوا لحربهم، وآذنوهم بالحرب، واقتتلوا، واعتزل بنوا إسماعيل كلا الفريقين، فغُلبت خزاعة ... وأجلوهم عن البيت " (١)

ثم وليت خزاعة البيت، ولما طال أمدهم " استخفوا بحرمة الحرم، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها سرا وجهرا، وكلما عدا سفيه منهم على منكر، وجد من أشرافهم من يمنعه، ويدفع عنه، وظلموا من دخلها من غير أهلها ..." (٢)

فقاتلهم قُصَيٌّ بن كِلاب – الجد الرابع للنبي صلى الله عليه وسلم – قتالا مريرا، آل أمره إلى أن تولى ولاية البيت من حجابة، وسقاية، وسِدانة، ولواء، وشيد دارا يفصل فيها في الخصومات، ويزيح فيها الظُّلامات، سماها دارَ الندوة، ثم لما كبر فوض أمر ولاياته

(١) انظر البداية والنهاية - ٢/١٨٥/ وأخبار مكة للأزرقي - ٨٢/٨٣/٨٤/٨٠/٨٦/

(٢) أخبار مكة للأزرقي ص ٩٠

إلى أكبر بنيه – عبد الدار – ولما مات عبد الدر وإخوته : عبدُ شمس، وعبدُ مناف، اختلف أبناؤهم في هذه الوظائف، ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف، واللواءُ والحجابة، والندوة، لبني عبد الدار [1] وقسمت وظائف بني عبد مناف، على هاشم وأخيه عبد شمس، فكانت الرفادة والسقاية لهاشم، والقيادةُ لعبد شمس، ثم ولي السقاية والرفادة المطلب بعد وفاة أخيه هاشم، ولما مات المطلب خلفه في وظائفه عبدُ المطلب ابن أخيه، ولما مات عبد المطلب خلفه ابنُه العباس بن عبد المطلب، عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم وأقره على وظائفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة، وتوارث بنو عبد الدار الحجابة، واللواء، ورئاسة الندوة، وأبقى النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة الحجابة بأيديهم، وهي فيهم إلى اليوم .

ب – الحالة الاجتماعية :

للتداخل الموجود بين ما هو سياسي واجتماعي، واقتصادي، يصعب إفراد كل منها عن الآخر، إفرادا مستقلا، لأن بعض هذه القضايا ينشأ عن بعضها الآخر، ويرتبط به، فقد يكون سبيلا له، أو مسبَّبا عنه، ولذلك سنرى بعض المظاهر الدينية، في المظاهر السياسية، والاقتصادية، كما سنرى بعض المظاهر الاقتصادية في المظاهر الدينية والسياسية، للارتباط الوثيق بين الجميع، ولن نستطيع الميز الكامل بينها، وإن كانت عناوينها مستقلة، وإنما نبرز في كل

(١) سيرة ابن هشام - ١٨١/١٧٢/١/

عنوان ما هو بارز مما يدخل تحته، وقد نقتطعه عما يرتبط به من مظهر سياسي، أو اقتصادي، أو ديني، لإعطاء الصورة، وتقريبها لذهن السابع .

فمن المظاهر الاجتماعية التي شاعت في بعض القبائل، وأْدُ البنات حيَّات، خوفَ العار تارة، وخوف الفقر أخرى، وكان أحدهم تسْودُّ الدنيا في وجهه إذا رزق بنتا ، وقد سجل القرآن الكريم ذلك عنهم بأدق وصف لفعلهم الشنيع هذا ، ولخلجات صدورهم عند ولادة الإناث، قال تعالى : ﴿ وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظَلَّ وجهُهُ مُسْودّاً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سُوءِ ما بُشِّر به أيمسِكُه على هُونٍ أمْ يدسُّه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ [النحل ٥٨/٥٩].

قال قتادة : " كان مضر، وخزاعة، يدفنون البنات أحياء، وأشدُّهم في هذا تميم، زعموا خوف القهر عليهن، وطمع غير الأكفاء فيهن " [1] وقد نقل أن أحدهم ولدت له بنت، فاستحا فخرج إلى جيرانه فاختبأ عندهم، و شبت البنت، وكانت أمها تُرقِصها وتقول :

ـ ما لأبي حمزة لا يأتينا ❖❖❖ يظَل في البيت الذي يلينا

ـ من أجل أ نَّا لانلدُ البنينا ❖❖❖ تالله ما ذلك في أيدينا

ـ فنحن كالأرض لزارعينا ❖❖❖ ننبت ما قد زرعوه فينا

فلما سمع هذه الأبيات – على ما في الأخير منها من عقائدهم الفاسدة – استحيا ورجع إلى أهله.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – ١٠/١١٧/

ومنها أنهم كانوا يشربون الخمر، ويكثرون منها، حتى تغنوا بها في أشعارهم، وصارت مضرب أمثالهم ويقامرون، ويتزوجون بغير عدد، ويزنون، وكان الزنا بالإماء عندهم ليس عارا، وكان عندهم ثلاثة أنواع من النكاح، كلها سفاح، كما جاء في حديث عائشة [١]وكانوا يفتخرون بالأحساب، ويقدحون في الأنساب، ويستسقون بالنجوم، ويستأجرون النائحات عند الوفيات، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي مالك الأشعري: " أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن، الفخرُ بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة " [٢]

كما كانوا يتزوجون بزوجات آبائهم، ويلحقون أولاد الزنا بهم، ويجمعون بين الأختين، ويطلقون بلا عدد، و يحرمون بالظهار زوجاتهم، وكانت المرأة تورَث، فإذا مات زوجها، كان أولياؤه أحق بها، فقد يتزوجها بعضهم، وقد يزوجونها لغيرهم، وقد يَعضُلونها فلا تتزوج أبدا [٣] إلى غير ذلك من عاداتٍ، كان الحيف فيها لائحا، والجورُ فيها بارزا، فأبطل الله عز وجل ذلك كلَّه، وردَّهم فيه إلى الجادة .

ج-الحالة الدينية

كانت الحالة الدينية عند العرب لا تقل رَداءة وبشاعة، عن

(١) انظر البخاري في النكاح باب لا نكاح إلا بولي /٥١٢٧/٩/

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز -٢/

(٣) البخاري عن ابن عباس في التفسير - ٩٣/٨/

الحالات السابقة، فقد وصل التدهور الفكري والعقلي إلى حد من التخلف لا يوصف، فانتشرت لذلك الوثنية بشكل فظيع في المجتمع العربي عامة، وفي مكة خاصة، وعُبدت الأصنام، والأشجار، والأحجار، وكثُر الكهنةُ، والسحرة، وانتشرت الشعوذة، والخرافات، والاعتقادات الفاسدة في المجتمع بأسره، إلى حد أن العربي يتخذ له إلهاً من التمر يعبده، فإذا جاع أكله .

هذا وقد وصف جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الحالةَ الدينية عند العرب أمام النجاشي وصفاً جلياً في خطبته البليغة الشهيرة، التي يجدر نقلها هنا، وتأملُها، لإدراك الفرق بين ماكان قبل النبوة وما حدث بعدها .

فعن أم سلمة قالت :" لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا فيها خير جار، النجاشيَّ، أمنا على ديننا، وعبدنا الله وحده لا نؤذَى، ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا، بعثوا إلى النجاشي بهدايا مع عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وكلَّماه في شأننا وقالا : أيها الملك قد صبا إلى بلدك غلمانٌ منا سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا أشرافُ قومهم إليك لتردهم إليهم، فأبى النجاشي، وأرسل إلى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما جاؤوه قال : " ما هذا الدين الذي فارقتم عليه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم " . قالت : وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب قال : " أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة،

ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل، لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله : من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلةِ الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وشهادة الزور، وأكلِ مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وإقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة _ قالت : فعدد عليه أمور الإسلام –فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا عن ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله عز وجل، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا،وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا،خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك " (١)

---

(١) حسن : أخرجه أحمد – ١/٢٠٢/ ٢٩٢/ و / ٥/٢٩٠/ والطبراني في الكبير /١١١/٢/ وعنه أبو نعيم في معرفة الصحابة /٥١٦/٢/

من طرق عن ابن إسحاق، عن ابن شهاب الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمان بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سلمة . وإسناده حسن، ابن إسحاق صرح بالتحديث عند أحمد فزال ما يخشى من تدليسه، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيحين لكنه أعل بالإرسال، فقد أرسله يونس ومعمر عن الزهري .

وأخرجه أبو نعيم في الحلية – ١/ ١١٥/ وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني – ٢٧٨/١/ وأبو داود في الجنائز/// ٣٢٠٥٢/

=

وهـذا الـنص كـاف في تجليـة حقيقـة الـدين الـذي كـان عليـه أهـل الجاهليـة في مكـة والجزيـرة، ووصـل بهـم الانهمـاك في الوثنيـة إلى أن اتخذت كل قبيـلة صنما لها تعبده من دون الله، فكان " ود "

لـبني كلـب بدُومـة الجنـدل، و"سـواع " لهـذيل علـى ثـلاث أمبـال مـن مكـة، و"يغـوث" لطيـئ، و"يعـوق " لخـولان، و"نـسر" لـذي الكـاع الحميريـة، وكـان لقـريش " هبـل " و " إسـاف، ونائلـة " علـى زمـرم يـذبحون لهـم، ويتمـسحون بهـم، ويلتمـسون مـنهم الـسُّعود، ولا يـسافرون ولا يتـاجرون ولا يتزوجـون، ولا يـأتون أي أمـر مـن أهـم أمـورهم إلا بعـد استـشارتهم بالاستقـسام عنـدهم، فـإن خـرج قـدَح الإذن بالفعـل فعلـوا، وإن خـرج ضـدُّه تركـوا وبلـغ بهـم الحـال أن اتخـذ أهـل كـل دار صـنما في

=

مـن طريـق إسـرائيل بـن يـونس، عـن أبـي إسـحاق، عـن أبـي بـردة، عـن أبـي موسـى .وإسـناده لـيس فيـه ما يخشى إلا تدليس أبي إسحاق السبيعي، وهو مدلس .

وأخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة – ٢/٥١٤/٥١٥/ بسياق نحوه .

مـن طريـق أبـي أسـامة، عـن بريـد، عـن أبـي بـردة، عـن أبـي موسـى قـال : بلغنـا خـروج الـنبي صـلى الله عليه وسلم ونحن باليمن . . . الحديث. وإسناده صحيح .

وأخرجـه البغـوي في معجـم الـصحابة /٤٣٥/١/ والطبرانـي في الكـبير /١١٠/٢/ وفي الأحاديـث الطوال /١٤/

مـن طريـق أسـد بـن عمـرو الكـوفي، حـدثنا مجالـد بـن سـعيد، عـن الـشعبي، عـن عبـد الله بـن جعفـر عن أبيه به . وإسناده ضعيف، لضعف مجالد، وأسد بن عمرو .

وأخرجه الطيالسي في سنده – المنحة – ٨٩/١/عن ابن مسعود .

وقـال الحـافظ في الإصـابة ٢٣٧/١/ عـن قـصة هجـرة جعفـر، وإسـلام النجاشـي علـى يـده : " وكـل ذلك مشهور في المغازي، بروايات متعددة صحيحة "

قلت: وهو مشهر معروف في الجملة

دارهم يعبدونه، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، واتخذوا بيوتا مع الكعبة، يعظمونها كما يعظمون الكعبة، بسدنتها، وحجابها، والطوافِ عندها، وتقديم القرابين لها، فكانت "اللات" بالطائف لثقيف، و" مناة " بالمشلل، للأوس والخزرج، و" العزى " بنخلة لقريش وبني كنانة، و" ذو الخصلة " بتبالة، لدوس وبجيلة وخثعم، و "ذو الكعبات " بسنداد، لبكر وتغلب، وكانت " رئام " لحمير وأهل اليمن، وكانت " رضاء" لبني ربيعة بن كعب .

ونُقل عنهم طرائف غريبة وحكايات عجيبة في عبادتهم هذه الأوثان وتعاملهم المختلف معها من شخص إلى شخص، وقبيلة إلى قبيلة،

فمن ذلك ما ذكر السائب بن عبد الله قال : " كان لي حَجَر أنا نحتُّه، أعبده من دون الله، وكنت أجيء باللبن الخاثر الذي أَنفَسُه على نفسي [1]فأصبه عليه، فيجيء الكلب، فيلحسه، ثم يشغَر [2] فيبول عليه . . . " [3]

ومنها أن غاوي بن عبد العزَّى، كان سادنا لصنم بني سُليم، فبينا هو عنده إذا أقبل ثعْلَبانِ يشتدان حتى تسنماه، فبالا

(١) أي أحسده عليها.

(٢) أي يرفع إحدى رجليه.

(٣) البداية والنهاية -٢/٣٠٣/ والقصة أخرجها أحمد - ٣/٤٢٥/ بسند رجاله ثقات، رجال الصحيح خلا هلال بن خباب العبدي، وهو ثقة، و رماه ابن حبان،والحاكم،والعقيلي بالاختلاط، ونفى يحيى بن سعيد القطان أن يكون قد اختلط .

عليه، فقال :

ـ أربٌّ يبول الثعْلَبَانِ برأسه ❖❖❖ لقد هان من بالت عليه الثعالب ـ

ثم قال : " يا معشر سليم، لا واللهِ لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، فكسره ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما اسمك ؟ قال : غاوي بن عبد العزى، فقال : "بل أنت راشد بن عبد ربه" (1)

ومنها أن بني حنيفة، اتخذوا إلهم الذي يعبدونه من حَيْس (2) وعبدوه زمنا طويلا، ثم أصابتهم مجاعة وشدة، فأكلوه، فعيَّرهم رجل من بني تميم بذلك في بيت شعري، فقال :

ـ أكلت ربَّها حنيفةُ من جو ❖❖❖ عٍ قديمٍ بها ومن إعواز ـ

وقال آخر في بيتين شعريين :

ـ أكلت حنيفة ربها ❖❖❖ زمن التقحم والمجاعة

ـ لم يحذروا من ربهم ❖❖❖ سوء العواقب والتِّباعة (3)

ومنها، أن عمر بن الخطاب، صنع إلهه من العجوة، ثم أكله عندما جاع " (4)

(1) انظر القاموس المرتب- ١/٣٠٧/ مادة ثعلب، والقصة عند ابي نعيم في معرفة الصحابة بسند ضعيف — ٢- ١١٢٠/

(2) تمر وأقط وسمن، تعجن وتسوى كالثريد.

(3) راجع المعارف لابن قتيبة —٦٢١.

(4) المصدر نفسه — ٦٢٢.

وقال أبو رجاء العطاردي : " كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو أخير منه، ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به، فإذا دخل شهر رجب، قلنا: منصِّل الأسنة، فلا ندع رمحا فيه حديدة، ولا سهما فيه حديدة، إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب " (١)

وهذه القصص تصور لنا في جملتها مدى الانحطاط العقدي الذي وصل إليه المجتمع العربي آنذاك ، ولم يقتصر الأمر في العبادة على الأصنام بشتى أشكالها، فقد عبدت العرب في اليمن الشمس، كما سجله القرآن الكريم في قصة بلقيس وقومِها أنهم يسجدون للشمس من دون الله، وعبدت الكواكب والنجوم، في حران في العراق، وكذلك في البحرين، وتسربت المجوسية إلى بعض بني تميم، وإلى هجر في البحرين، وكان الأقرع بن حابس ممن انتحل المجوسية، وكان بعض الزنادقة في قريش، تسربت إليهم من الحيرة (٢)

وأما اليهودية والنصرانية، فقد انتشرت أيضا في أجزاء من بلاد العرب، فتركز اليهود في يثرب ووادي القرى، وخيبر، وتيماء، وفَدَك، واليمن، وانتشرت النصرانية إلى الأطراف العربية المحاذية للشام، فكان النصارى في نجران، ودان بها الغساسنة والمناذرة، وبنو أسد، وأنشئت كنائس بعَدَن، وظَفار، ولم تكن هاتان الديانتان خيرا من عبادة الأصنام التي عند العرب، لما دخلها من التحريف والتبديل

---

(١) البخاري في المغازي - ٤٣٧٦/٦٩٢/٧/والحاكم نحوه عن المغيرة بن شعبة ٤٥١/٣/

(٢) المعارف - ٦٢١

اللذين أخفيا معالمهما، ولم يبق منهما إلا طقوسا لا تسمن ولا تغني من جوع، وانمحت ديانة إبراهيم التوحيدية، وليس منها في يد العرب إلا بعض القضايا من الحج التي بدورها لا تسلم في جملتها من إدخال الشرك فيها، ولم يبق من الحنفاء إلا نزر قليل يحذر الناس من الشرك وعواقبه، ومن تبديل الملة الحنيفية، بعادات لا أساس لها في ملة إبراهيم .

ومن هؤلاء الحنفاء، زيد بن عمرو بن نفيل، وقُسٌّ بن ساعدة الإيادي، ولبيد بن ربيعة .

وكان على النصرانية ورقة بن نوفل، وأمية بن أبي الصلت الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم : "كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم " (١)

ثم إنه أدرك الإسلام ولم يسلم تكبرا، فمات شقيا محروما، وأما لبيد بن ربيعة، فقد أدرك الإسلام، وأسلم، فكتب له أجره مرتين، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : "أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد :

ـ ألاَ كلُّ شيء ما خلا اللّهَ باطل ❖❖❖ وكل نعيم لا محالة زائل ـ (٢)

ولما أسلم تخلى عن قول الشعر، وقال: "قد أبدلني الله بالشعر

(١) أخرجه مسلم في الشعر - ١٧٦٨/٤/

(٢) المصدر نفسه.

سورة البقرة، وآل عمران، فزاد عمر في عطائه، فبلغ به ألفين [1]

وهؤلاء الحنفاء على قلتهم، كانوا يمثلون ومضات حقيقية، من حنيفية سليمة، توارثوها عن إبراهيم عليه السلام، وكانوا حلقة وصل في عدم انقطاعها، حتى آل أمر تجديدها إلى محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إبراهيم، فعادت كما كانت، وأشد، وذلك يدل على أن ما هو حق، لا ينمحي بالكلية، وأنه ما جرت سنة الله بإزالته كلية، وإن كان ضعيفا، وأن الله يهيئ له من يحمله ويتبناه في كل زمان.

هذا، ولم تكن الوثنية أولاً بالحجاز، وإنما طرأت على أهلها زمن ولاية خزاعة على البيت، وكان عمرو بن لُحَي الخزاعي، أولَ من أدخل الأصنام إلى بلاد العرب، فقد زار الشام، فوجد العمالقة فيها يعبدون الأصنام، فطلب منهم صنما فأعطوه " هبل " فأتى به مكة، ونصبه، وأمر الناس بتأليهه وعبادته، وكان سيداً مطاعا فيهم، وهو أيضا أول من سيّب السوائب.

ففي حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قُصُبه في النار، كان أول من سيب السوائب وبحَّر البحيرة، وغير دين إسماعيل "

وفي لفظ ابن إسحاق: " لأنه أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان وسيّب السائبة، وبحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي " [2]

---

(١) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلالم الجمعي ١/١٣٥/١٣٦/

(٢) أخرجه مسلم في الجنة -٤/٢١٩٢/ والبخاري في التفسير -٨/١٣٢/ وفي المناقب - ٦/٦٢٣/ وابن إسحاق في السيرة كما في - سيرة ابن هشام - ١/٧٦/ وغلط الحافظ فعزا الزيادة =

وفي سورة الأنعام شيء كثير مما تتدين به العرب، في زروعها وضروعها، وأنساكها، وقتل أولادها خشية الفقر .

قال ابن عباس:"إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام "

﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وما كانوا مهتدين ﴾[الأنعام][(1)]

ومع هذه الصورة القاتمة، التي كان عليها العرب، سياسيا، واجتماعيا، ودينيا، إلا أنه بالمقابل، كانت فيهم خصال خيرة، يمتازون بها عن الشعوب الأخرى : من الشجاعة، والنجدة، والكرم، والنخوة، واحترام الجار، وصدق العزيمة، والتخلي عن رذيلتي الكذب والتملق، والدفاع عن الأعراض، وتقدير من يتصف بالأخلاق الفاضلة،وصدق الحديث،وإقراء الضيف، وفك العاني، وصلة الرحم، والصداقة، والعتاقة .

د- الحالة الاقتصادية

لم تكن الحالة الاقتصادية، بمعزل عن المؤثرات السابقة، فهي تؤثر فيها وتتأثر بها، ولذا كانت المعاملات المالية عند العرب في مكة، مبنية على المحرمات التي لا تخفى مفاسدها على أحد، وقَلَّ منهم من كان كسبه طيبا، ويأكل طيبا، أو يَتَرقَّح لذلك، وكل

=

التي عند ابن إسحاق – أعني " وبحر البحيرة، وغير دين إسماعيل"

لمسلم، وليست عنده . وكان الصواب ما فعله في المناقب من عزوها لابن إسحاق . وإسنادها حسن .

(1) أخرجه البخاري في المناقب /٦٣٦/٦/ح/٣٥٢٤/

من فنِغ [1] ماله منهم، فلا بد أن تجده يتعامل في المحرمات غالبا.

وكان على رأس معاملاتهم، التعاملُ بالربا، الذي انتشر بينهم انتشار النار في الهشيم، حتى اشتهرت بينهم العبارة السائدة، وهي : " إما أن تقضي، وإما أن تربي " وكان كبار القوم عامةً يتعاطون الربا، ومنهم العباس بن عبد المطلب، عمّ النبي صلى الله عليه وسلم [2]

كما كانوا يتاجرون في الخمر، ويتهادونها فيما بينهم، ويتفاخرون بشربها في أنديتهم، ويتقامرون، ويأكلون كسب القمار، وثمن الكلاب، وما يأخذه البغايا على بغائهن.

وكان الرجل منهم يرسل إماءه، ليتكسبن له من البغاء، فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا ﴾ [النور ٣٣] وكانوا أيضا يأكلون حلوان الكاهن " فنهى النبي صلى الله عليه وسلم لذلك عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن " [3] وقال أيضا : " ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث وكسب الحجام خبيث " [4]

وكانت عندهم مجموعة من البيوع، كلها بيوع جاهلية، إما لأن فيها الربا، أو الغرر، او الجهالة، كبيع المنابذة، والملامسة، وبيع

(١) أي كثر.

(٢) انظر مسلم في الحج – حديث – ١٢١٨/

(٣) أخرجه مسلم في المساقاة /١١٩٨/٣/ من حديث أبي مسعود الأنصاري

(٤) مسلم من حديث رافع بن خديج –١١٩٩/٣/

المصراه، وحبل الحبلة، وبيع الثمار قبل بدو صلاحها، وبيع المزابنة، والمحاقلة، والمعاومة.

وكانوا يطففون في الكيل، وكان أهل يثرب من أقبح الناس كيلا، فعن ابن عباس قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله سبحانه: ﴿ ويل للمطففين ﴾ [التطفيف ١] فأحسنوا الكيل بعد ذلك " (١)

وليس في مآكلهم ومشاربهم ما يخلوا من حرام إلا نادرا .

وكان أكلُ الميتة، والمتاجرةُ فيها، شيئا عاديا عندهم، فلذلك كانت لهم طباع نشأت عن هذه المكاسب المحرمة، كالقسوة والشدة، والانتهازية، واستغلال الحاجة والضرورة للإثراء، والمزاجية، فتارة تجد العربي كريما، وتارة تجده لئيما، وهذه الخصلة اكتسبوها من انهماكهم في شرب الخمر .

وعلى كل حال، فالوضع الاقتصادي لديهم، لم يكن أحسنَ من الأوضاع الأخرى .



(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات -٢/٧٤٨/ح/٢٢٢٣/ والحاكم -٢/٣٣/ وقال " حديث صحيح ولم يخرجاه " وأقره الذهبي . وإنما هو حسن .

المحور الثالث

استنارة الوجود بولادة سيد العالمين، صلى الله عليه وسلم

أ–شرف النسب والحسب:

في ذاك الواقع الذي وصفنا بكل سلبياته، وإيجابياته، ازدان الوجود بولادة نبي الهدى محمد صلى الله عليه وسلم وكانت ولادته يمناً وبركة، وسعادة، ورحمة للبشرية كلها، إذ به فَكَّ الله تعالى عنها الأغلال، ورفع عنها الإصر، وأعتقها من طواغيت البشر، وعبادة الحجر والشجر، ورَفَع عنها العذاب – المستأصل لشأفتها – إلى قيام الساعة.

ولد صلى الله عليه وسلم من خير أبوين، في خير قبيلة، في خير بيت، بجوار بيت الله، وفي حرم الله، فاكتنفه الشرف صلى الله عليه وسلم – فداه أبي وأمي – من جميع الجهات: شرفُ النسب والحسب، وشرفُ المكان، وشرف الزمان، فقد ولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين كما في الصحيح من حديث أبي قتادة أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: " ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت – أو: أنزل علي فيه " (١)

ومعلوم أن يوم الإثنين، هو أوسط أيام الأسبوع، وخير الأمور أوسطها وفيه مغزى أنه صلى الله عليه وسلم وأمته، أوسط الأمم، وأخيرها، وأعد لها عند الله، ولذلك يشهدون على الناس، ولا يشهد

(١) أخرجه مسلم في الصيام –٢/٨١٩/ح/١١٦٢/.

الناس عليهم، قال تعالى : "﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [البقرة –١٤٣] كما كان فيه التذكير بأن كل المخلوقات أزواج، وأن خالقها الواحدَ الصمد، هو الفرد الذي لا زوج له، وما سواه مربوب مخلوق له .

ونقل عن ابن عباس أنه قال : " ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين، واستنبئ يوم الإثنين، وتوفي يوم الإثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الإثنين وخرج مهاجرا يوم الإثنين، وقدم المدينة يوم الإثنين" (١)

وفي الصحيح عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله اصطفى [من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل، بني] كِنانة، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم " (٢)

ونشأ صلى الله عليه وسلم على الفضائل، والكمالات، والأخلاق الحميدة، والسيرة الحسنة والصدق، والعفاف، والطهر،

(١) أخرجه أحمد - ١/٢٧٧/ والطبراني في الكبير - ١٢/٢٣٧/ ح/١٢٩٨٤/
من طريق ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس به، وهو بهذا السياق ضعيف، فيه ابن لهيعة، وليس من رواية من روى عنه قبل الاختلاط، ويظهر اختلاطه فيه بقوله في رواية الطبراني : " وفتَح بدرا يوم الإثنين " ولاشك عند جميع أهل السير – بل تواتر عندهم – أن بدرا " كانت صبيحة يوم الجمعة، السابع عشر من رمضان في السة الثانية من الهجرة . وحسن بعضهم هذا الأثر، ولم يصنع شيئا.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل – ٤/١٧٨٢/ ٢٢٧٦/ والترمذي في المناقب والزيادة له /٥/٥٨٣/ وقال: حسن صحيح

والشجاعة، والرحمة، والعزيمة النافذة، واليقين الجازم، والمروءة العميمة، والنبل، والشهامة، وصدق القول والفعل، حتى عرف بين قومه بالصادق الأمين،

وكانوا لا يلقبونه حينما يرونه إلا بذلك، فيقولون : جاء الصادق الأمين،وقال الصادق الأمين، ورأينا الصادق الأمين .

وكان صلى الله عليه وسلم مجانباً لما عليه قومه من رذائل الأخلاق بالكلية، ولم يؤثر عنه أنه هم بشيء مما كان فِتيان مكة يهمون به : من اللهو، والمجون، وسماع الأغاني، ومشاهِدِ رقْص القينات، وما رُوي في بعض الروايات من قوله صلى الله عليه وسلم : "ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمُّون به من النساء إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما . . . الحديث. فليس بصحيح، قال ابن كثير : " حديث غريب جدا " (١)

يعني أنه ضعيف جدا ، لأن محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة، مجهول الحال، وذكر صاحب الكمال أن الشيخين أخرجا له، وردَّ عليه المزي بقوله:" ولم أقف على رواية أحد منهما (٢)

قال ابن كثير :" وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع

(١) انظر البداية والنهاية - ٢٨٨/٢٨٧/١/

(٢) تهذيب الكمال - ٥٣٣/٢٥/ وليس فيه تعقيب المزي، وقد يكون ذكر ذلك في حواشي نسخته، وقد نقله عنه ابن كثير أيضا في البدايةولعل الذي غلَّط صاحب الكمال أنه ظن أن محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة، هو محمد بن قيس بن مخرمة، فهذا له رواية في مسلم، وكلاهما يروى عنه ابن إسحاق، ويختلفان في الطبقة وفي اسم الأب

أبـــي طالـــب، يكلـــؤه الله ويحفظـــه، ويحوطـــه مـــن أمـــور الجاهليـــة ومعاليهـا، لمـا يريـد مـن كرامتـه، حتـى بلـغ أن كـان رجـلا أفـضلَ قومـه مـــروءةً، وأحـــسنَهم خلقـــا، وأكـــرمَهم مخالطـــة، وأحـــسنَهم جـــوارا، وأعظمَهـــم حلمـــا وأمانـــة، وأصـــدقَهم حـــديثاً، وأبعـــدَهم عـــن الفحـــش والأذى، مـا رؤي ملاحيـاً ولا مماريـاً أحـدا، حتـى سمـاه قومـه الأمـين، لِـما جمـع الله فيـه مـن الأمـور الـصالحة، فكـان أبـو طالـب يحفظـه ويحوطـه، وينصره ويعضِّده حتى مات " (١)

ب–حضوره صلى الله عليه وسلم حلف الفضول

وحـضر رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم هـذا الحـدَث العظـيم مـن أحـداث مكـة، الـدال علـى أنـه بـدأ التأسـيس لعهـد جديـد، تـسود فيـه العدالـة، والأخـوة، والتراحـم، ببركـة الـنبي صـلى الله عليـه وسـلم، هـذا الحـدث، هـو حلـف الفـضول، ويتـضمن هـذا الحلـفُ، إعانـةَ أي مظلـوم علـى ظالمـه حتـى ينتـزع حقـه منـه، وأن لا يبقـى بمكـة مظلـوم، وأول مـن دعا إليه الزبير بن عبد المطلب .

وسـببه " أن رجـلا مـن زَبيـد، قـدم مكـة ببـضاعة، فاشـتراها منـه العاصـي بـن وائـل، فحـبس عنـه حقـه، واسـتدعَى عليـه الأحـلاف : عبـدَ الـدار، ومخزومـا، وجمحـا، وسـهما، فـأبوا أن يعينـوه، وزبـروه، فلمـا رأى الزَّبيـدي الـشر، أَوفـى علـى جبـل أبـي قُبـيس عنـد طلـوع الـشمس – وقريش في أنديتهم حول الكعبة – فنادى بأعلى صوته :

ـ يا آل فِهْرٍ لمظلومٍ بضاعتُـــــه❖❖❖ ببطن مكـة نائي الدار والنفر

(١) البداية والنهاية – ٢/٢٨٦/

- ومحرمٍ أشعث لم يقض عمرتَه ❖❖❖ يا لَلرجال وبين الحِجْر والحَجَر
- إن الحرام لمن تمت كرامتُه ❖❖❖ ولا حرام لثوب الفاجر الغَـــــدِرِ

فقام الزبير بن عبد المطلب، فقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم، وزهرة، وتيم بن مُرة في دار عبد الله بن جُدْعان، فصنع لهم طعاما، وتحالفوا ... فتعاقدوا، وتعاهدوا بالله ليكونُنَّ يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي حقه ... وعلى التأسي في المعاش ... ثم مشوا إلى العاص ابن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزَّبيدي، فدفعوها إليه، وكان صلى الله عليه وسلم قد حضر هذا الحلف، وقال: " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت " تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها، وأن لا يعَز ظالم على مظلوم [(1)]

(١) انظر القصة في البداية والنهاية – ٢٩١/٢/ وسبل الهدى والرشاد – ١٥٤/٢/ والقدر المرفوع أخرجه الحميدي – كما عزاه إليه ابن كثير – بسند صحيح -

وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى /٣٦٧/٦/ من طريق ابن إسحاق، حدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفد، عن طلحة بن عبد الله بن عوف مرسلا . وهو مرسل حسن، وصله ابن سعد في الطبقات ١٢٩/١/ من طريق الواقدي بسنده إلى طلحة بن عبد الله، عن عبد الرحمان بن أزهر، عن جبير بن مطعم . والواقدي متروك، وابن إسحاق الذي أرسله أوثق منه .

وأخرجه أحمد – ١٩٣/١٩٠/١/ والبخاري في الأدب المفرد، الباب ٢٥٦/ باب حلف الجاهلية، والحاكم ٢٢٠/٢/

والبزار – كشف الأستار – ١٩١٤/٣٨٧/٢/ وأبو يعلى – ١٥٧/٢/ وابن عدي /١٦١٠/٤/ و عنه البيهقي في الدلائل /٣٨/٢/

من طرق عن عبد الرحمان بن إسحاق، عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن عبد الرحمان بن عوف أنه صلى الله عليه وسلم قال: " شهدت حلف المطيبين مع عمومتي، وأنا علام، فما أحب أن لي حمر النعم وأَني أنكثه " . وقال الحاكم: "صحيح =

ج – فَصْلُه صلى الله عليه وسلم بين قريش في نزاعهم فيمن يضع الحجر الأسود في جدار الكعبة :

لما أعادت قريش بناء الكعبة، ووصلوا إلى موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يضعه، فأرادت كل قبيلة أن تحوز لنفسها شرف وضعه في مكانه، واختصموا في ذلك، وتدارؤوا، وتشاكسوا، حتى كادوا يحملون السلاح، على عادتهم عند الشقاق، فقال لهم أعقلهم : أبو أمية بن المغيرة المخزرمي : يا قوم إنما أردنا البر، ولم نرد الشر، فلا تحاسدوا، ولا تنافسوا، فإنكم إذا اختلفتم تشتت أموركم، وطمع فيكم غيركم، ولكن حكِّموا بينكم أول من يطلع عليكم من هذا الفج قالوا : رضينا، وسلمنا .

قال علي رضي الله عنه وكان رسول الله صلى الله عليه

=

الإسناد ولم يخرجاه" وقال البزار :" لا نعلمه يروى إلا عن عبد الرحمان بن عوف، روى عنه من غير وجه، وهذا أحسن إسناد يروى في ذلك، ولا روى جبير، عن عبد الرحمان إلا هذا " اهـ .

وقال الهيثمي في المجمع – ١٧٢/٨/: " ورجال حديث عبد الرحمان ابن عوف رجال الصحيح " اهـ .

قلت : وهو كذلك، إلا أن عبد الرحمان بن إسحاق بن عبد الله بن الحارث وإن كان من رجال مسلم، فهو صدوق، متكلم في عدالته وضبطه، واختلف هل حلف المطيبين، هو حلف الفضول أوغيره ؟ والظاهر أن بينهما فرقا، وأن موضوعهما مختلف، وأن حلف المطيبين لم يدركه النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن كثير : " وهذا لا شك فيه " وإنما أراد عباد أن يقول "حلف الفضول" فقال : " حلف المطيبين " وعليه فهذه اللفظة في هذا المتن منكرة . وهذا وللحديث شاهد عن أبي هريرة عندالبيهقي في الدلائل بلفظ " ما شهدت حلفا إلا حلف المطيبين . . ." إلخ فليتأمل هذا الحصر.

وسلم أول من خرج عليهم، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب بني شيبة، فلما رأوه، قالوا : هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال : هلم إلي ثوبا، فأُتي به، فأخذ الحجر، ووضعه في وسطه فأمر كل فخذٍ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فيرفعوه، وأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه " (1)

وهذا إشارةٌ ودلالة وتمهيد أنه صلى الله عليه وسلم سيبعثه الله للفصل بين الحق والباطل، وجبر ما انكسر وتهدم من أخلاق الحنيفية

(1) أخرجه الطيالسي في مسنده — المنحة — ٨٦/١/ والطبراني في الأوسط — ٢١٩/٣/ ٢٤٦٣/ والحاكم /٤٥٨/٢/ في سياق طويل، من طريق سماك بن حرب، عن خالد بن عرعرة، عن علي به . وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي : "على شرط مسلم" وليس كذلك،لأنّ سماكا كان يقبل التلقين، وهو سيء الحفظ . وقال الهيثمي في المجمع /٨/ ٢٢٩/ بعد عزوه للطبراني " ورجاله رجال الصحيح، غير حفص بن عمر الضرير، وخالد بن عرعرة، وكلاهما ثقة " اهـ قلت : خالد بن عرعرة، ترجمة البخاري في التاريخ الكبير /١٦٢/٣/ وابن أبي حاتم /٣٤٣/٣/ ولم يزيدا على أنه يروى عن علي، ويروى عنه سماك، فهو عندهما مجهول الحال . وذكره ابن حبان في ثقاته، وأغفله الذهبي والحافظ في الميزان، واللسان، فلم يذكراه أصلا.

هذا وللحديث شاهد عن السائب بن يزيد، أخرجه أحمد/٤٢٥/٣/ وأبو نعيم في الدلائل ـ ١٧/ بسند رجاله رجال الصحيح، إلاهلال بن خباب، فهو ثقة، لكن رماه العقيلي، والحاكم بالاختلاط، ونفى عنه يحيى القطان ذلك . وبالجملة، فوضعه صلى الله عليه وسلم للحجر، حسن بهذا الشاهد، وأما السياق الطويل للقصة الذي ساقه الحاكم، فلا يحسن منه إلا هذا القدر، وهو الذي اقتصر عليه الطيالسي وأحمد هذاوله شاهد أيضا عن ابن عباس، وجبير بن مطعم عند ابن سعد —١٤٥/١/ من طريق الواقدي . وأخرجه أبو نعيم أيضا من مرسل سليمان بن طرخان ص ١٧٦/.

وأخرجه أبو نعيم بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم قال : " أنا وضعت الركن بيدي، يوم اختلفت قريش في وضعه "

بشدف الجاهلية وغلوائها، وإيذانٌ أنه صلى الله عليه أمين حقا على وحي الله، وعلى خلق الله، وعلى ملك الله، وأن الأمانة، والعدالة، به ستلقِي بجرانها في الأرض إلى قيام الساعة.

د – زواجه صلى الله عليه وسلم بخديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

إذا كان حضورُه صلى الله عليه وسلم حلف الفضول، وفصلُه بين قريش في وضع الحجر الأسعد في جدار البيت، يؤسس لجسام الأمور، التي ستلقَى على عاتق محمد صلى الله عليه وسلم، فإن زواجه بخديجة – رضي الله عنها – كان حلقة بارزة، في ذلك التأسيس، وتلك التهيئة والإعداد الربانيّين لمحمد صلى الله عليه وسلم، بل كان هذا الزواج معلمةً بارزة في مستقبل الرسالة الإسلامية، ونبي الإسلام، وهو إحدى المقدمات الكبرى والركيزة المحورية التي يتوقف عليها نجاح الدعوة في بدايتها.

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة، وسنه خمس وعشرون سنة، وسنها أربعون سنة، وكانت امرأة لبيبة، عاقلة، حسيبة، نسيبة، تدعى الطاهرة، لشدة عفافها، وصيانتها، وكانت منزلتُها عظيمة في نفوس قريش، وكان كبار قريش قد خطبوها فردتهم، وكانت ثرية، تجارتها تجوب الصحراء ذهابا وإيابا إلى اليمن، والشام .

هـ – سبب زواجها بالرسول صلى الله عليه وسلم :

ذكر ابن إسحاق أن خديجة " لما بلغها عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم ما بلغها: من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثتْ إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام يقال له ميسرة، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها "... فلما قفل من الشام، وربح في تجارته، ورأى ميسرة منه أمورا عجيبة –حدثها بها– بعثتْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له – فيما يزعمون – " يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسِطتك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسَها، وكانت خديجة يومئذ، أوسطَ نساء قريش نسبا، وأعظمهن شرفا، وأكثرهن مالا، كلُّ قومها كان حريصا على ذلك منها، لو يقدر عليه .... فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه، فتزوجها " (١)

فهذا هو المشهور عند أهل السير، وأما ما روي عن ابن عباس أن أباها رغب عن النبي صلى الله عليه وسلم فتركوه حتى سكِر وثمِل، فزوجه وهو سكران، فلما أفاق من سكره، وجد عليه حُلّة وخَلوقا، فقال: ما شأني، فقالت له خديجة: زوجتني محمد بن عبد الله، فقال: أزوج يتيم أبي طالب؟ لا، لعمري، فقالت خديجة: أما تستحيي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك

(١) أورده ابن هشام عن ابن إسحاق موقوفا عليه – ١/١٨٩/١٩٠/

كنت سكران، فلم تزل به حتى رضي " [١]

فهو منكر، إذ لا يعقل أن يكون أبوها قد أنف أن يزوج النبي صلى الله عليه وسلم، وأكابرُ قريش ينتظرون منه صلى الله عليه وسلم إشارة فقط ليزوجوه بناتهم لوأراد .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم لا يرضى في زواجه بهذه الصفة القذرة، وهذا الاحتيال الذي لا يقدر عليه إلا مرَدَة الشياطين من الإنس، وهو صلى الله عليه وسلم يعلم علم اليقين أن نكاح المكره في أي ملة لا يجوز ولا ينعقد .

ثم إن خديجة – رضي الله عنها – أيضا بمنأى – لشرفها وعقلها – عن مثل هذا السلوك اللئيم . ويزيد لهذا المتن نكارة، أن الذي زوج خديجة من النبي صلى الله عليه وسلم هوعمها .

وقال الواقدي بعد سوق هذه الرواية – " وهذا غلط، والثبت عندنا، المحفوظ من حديث محمد بن عبد الله بن مسلم، عن أبيه، عن محمد بن جبير بن مطعم، ومن حديث ابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، ومن حديث ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة عن ابن عباس أن عمها : عمرو بن أسد، زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباها مات قبل الفجار " [٢].

ثم إن سند الرواية المذكورة، غير صحيح، لأن مداره على

(١) أخرجه الطبراني في الكبير – ١٢/ ١٨٦/ ح/ ١٢٨٣٨/ وأحمد /١/٣١٢/ والبيهقي في الدلائل –٢/٧٣/ من طرق عن حماد ابن سلمة، عن علي بن زيد، عن عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس.

(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك /٢/ ٣٦٩ /وطبقات ابن سعد _ ١/ ١٣٣

حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس، وقد سقط علي بن زيد، عند أحمد، والطبراني، فتكون روايتهما منقطعة من هذه الجهة، ولا تتصل إلا بذكر علي بن زيد، بن جدعان، وهو ضعيف، إذا لم يخالَف، فكيف إذا خولف .

ثم إن الحديث منقطع، ولم يجزم حماد بن سلمة بوصله فعند أحمد : " عن ابن عباس فيما يحسب حماد " وما دام قد شك في وصله، ولم يجزم به، فلا اعتداد به .

وقولُ الهيثمي في المجمع /٢٢٠/٩/ : " ورجال أحمد والطبراني رجال الصحيح " لا يفيد الصحة والقبول، لأنه قد يكون رجاله ثقات، وفيه انقطاع أو إعضال أو إرسال، أو ما أشبههما من العلل، وكونُ رجاله رجال الصحيح، أو كونهُما ثقات لا يستلزم القبول .لأن ذلك شرط واحد من شروط الصحة، كما هو معلوم، ولابد من توفر الشروط الباقية ليتم الاحتجاج بالحديث

وقد يقال : إن هذه القصة – أعني تزويج خويلد خديجة من النبي صلى الله عليه وسلم وهو

سكران – لها شواهد تعضدها، وذلك يقويها ويدل على أن لهاأصلا ،فقد رويت عن عمار بن ياسر (١) وعن جابر بن سمرة (٢)

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل – ٧١/٢/ والبزار – كشف الأستار /٢٣٦/٣/ح/٢٦٥٦/

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير /٢١٠/٢٠٩/٢/ح/١٨٥٨/ والبزار – كشف الأستار – ٢٣٨/٢٣٧/٣/ ح/٢٦٥٧/

قلت : أما رواية عمار بن ياسر، فهي منكرة كسابقتها، مدارها على عمر بن أبي بكر الموصلي، ترجمه الذهبي في الميزان /١٨٤/٣/ وقال :" ضعفه أبو زرعة، وقال أبو حاتم : متروك، ذاهب الحديث " . ومن كان بهذه المثابة فلا يفرح بروايته، وشيخُه عبد الله ابن أبي عبيدة بن محمد بن

عمار بن ياسر، مجهول، لم أجد من ترجمه، وكذلك مقسم ابن أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل .

ولما ساقه البزار قال : " لا نحفظه عن عمار إلا بهذا الإسناد " وهذا قدح فيه بأنه لا يعرف إلا من هذه الجهة .

وأما حديث جابر بن سمرة، فمداره على عمر بن حفص بن غياث، عن أبيه، عن الأعمش، عن أبي خالد الوالبي، عن جابر بن سمرة . والأعمشُ قد عنعنه، وهو مدلس، ولا يقبل منه إلا ما صرح فيه بالسماع .

ولا يغتر بقول الهيثمي : "ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير أبي خالد الوالبي، وهو ثقة، ورجال البزار أيضا رجال الصحيح، غير أحمد بن يحيى الصوفي، وهو ثقة، لكنه ليس من رجال الصحيح " . لأن هذا لا يفيد القبول .

فثبت بهذا أنه صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة، كما تتزوَّج النساء، برضا وليها، كما تضافرت الروايات بذلك .

ثم لو فرضنا أن أسانيد الأحاديث السابقة، قد صحت أو صح بعضها، فلن تتردد في الحكم بالنكارة على ذلك المتن، وأنه قد

غلِط فيه بعض الرواة، ولو كان ثقة، لأن الثقة قد يغلط، ولذلك أخطأ خطأً فادحاً الشيخُ إبراهيم العلي، حينما أورد تلك الأحاديث السابقة المنكرة مصححا لها في صحيح السيرة [1] مغترا بتعدد رواياتها وبقول الهيثمي السابق، دون أن ينظر في الأسانيد، ويفتشها، ثم ينظر في المتن، هل سلم من علة أو لا، وكم له من أوهام، وتساهل، وعدم دقة، في كثير مما سطره في كتابه المذكور، ونفسُ المسلك سلكه الشيخ الطرهوني في سيرته الصحيحة [2]

من الاغترار بتعدد المخارج لهذه القصة، دون النظر في عللها الفادحة، ودون النظر في المتن المنكر .

ولهذا لم يتردد المحدث الكبير، العلامة الشيخ شاكر – رحمه الله – في تعليقه على المسند من تضعيفه [3]

هذا وقد رزق النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة جميع أولاده، ما عدا إبراهيم، ولم يتزوج عليها حتى ماتت – رضي الله عنها – إكراما لها، لما تحملته من أعباء الدعوة، وما أنفقت من مالها وجاهدت به في سبيل الله، في وقت كان القاصي والداني، قد فوّق سهامَه للدعوة وصاحب الرسالة، ولما توفيت، حزن عليها النبي صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا .

ومناقبها كثيرة، وفضائلها جمة، وموقعها من الإسلام، و مركزيتها في الدعوة مما لا يخفى كما سيأتي.

---

(١) انظر صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي /٤٥/٤٦/

(٢) انظر صحيح السيرة النبوية للشيخ محمد بن رزق الطرهوني –١/١٦٧/١٦٨

(٣) انظر الحديث – ٢٨٥١/ج/٣/٢٦٣/

المحــــور الرابع

المنهج التاريخي عند البشرية عامة والمسلمين خاصة

أ – البشرية، وتدوين أحداث التاريخ

لم تكن البشرية في مراحلها الطويلة، تولي لأحداث التاريخ قيمتها، ولا تحلها منزلتها اللائقة بها، ولا تأخذ منها العبر، ولا تدونها بتفاصيلها وتواريخها، فلذلك ضاع كثير من حقائق التاريخ وأحداثه، ولم يُنقَل لنا من لدن آدم عليه السلام، إلى محمد صلى الله عليه وسلم إلا تزر يسير من تلك الأحداث، وصُبابة مشدوفة عن تلك القرون، مع ما يشوب كثير منها، من التضارب، والتناقض، وعدم الانسجام، الذي يَشي بعدم دقة تدوين ما دُون منها، ومع ما يحيط به من الريب، وظهورِ أمارات التلاعب والوضع في تلك الأحداث، مما يفقدها المصداقية، وعدم الاتكال عليها .

والقارئ لها لن تطيعه نفسه أن يعتقد جل ما يقرأ من حقائقها، وجزئياتها، لأنها من جهة، لم تنقل من طرق معهودة معروفة، حتى تَكتسب هيبةَ الخبر الصادق، من مخرج صادق، ولأنها من جهة أخرى، عبارة عن متناثرات تَفتقد – إن كانت سيرة، ذاتية – حقائقَ السير الذاتية، التي هي تغطية جميع جوانب الموضوع، حتى تكون حلقاته سلسلة متتالية، يأخذ بعضها بعنق بعضها الآخر .

والمشهود المعلوم للمؤرخين، أن سير السابقين، لا يوجد في تاريخ البشرية ما يعطي عنها صورة كاملة، فمثلا لو أخذتَ سير الأنبياء – قبل محمد صلى الله عليه وسلم – وهم أسمى نوع بشري آثار

الاستغراب الإنساني الذي يستدعي تسجيل كل ما يناط بهم بدقة متناهية، لن تعثُر لهم في ذلك التاريخ على ما يمنحك عنهم حقائق مفصلة، تُروي ظمأ الظامئ، وتشبع مسغبة الساغب، وتجيب عما يختلج في النفوس حولهم من أسئلة ملحة، في حاجة إلى إجابات مقنعة .

فلو نظرت مثلا في سيرة عيسى عليه السلام – وهو أقرب نبي إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم – في ذاك التاريخ، لما أفلحت في الخروج برؤية واضحة، عن حياته، ودعوته وحوارييه، وعن رفعه .ولولا القرآنُ الكريم، والسنة النبوية المقبولة، اللذان سجلا سير هؤلاء، ودعوتهم أقوامهم، وكيف كانت عاقبة المتقين والمكذبين، لما ارتاحت النفوس للجزم بشيء معين حولهم، لما في تلك الأحداث، من الخبط، والخلط، وسمات التزييف، والتوجيه، وخاصة من طرف اليهود، عليهم لعائن الله .

فإذا كان وضع سير الأنبياء – وهم من هم – بهذه المثابة، فما عسانا نقول عن أخبار من دونهم، وعن تراجم من سواهم، إن هو إلا ضِغث على إِبَّالة، ورمية في خواء، واستعراض لأقاصيص، هي عبارة عن أضغاث أحلام في جملتها، لا ينطلي الوجدان بشيء منها، ولاترتوي العاطفة منه، ولا يوجه سلوكا واقعيا مرئيا .

والقرآن الكريم نفسه أو مأ لهذا اللبس العجيب بقوله :" إنَّ هذا لهو القصص الحق " [آل عمران ٦٢] وفي هذا إشارة إلى أن ما سواه من القصص باطل، أو في حكم الباطل، لغموضه والتوائه، وقولِه : " نحن نقص عليك أحسن القصص، بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن

كنت من قبله لمن الغافلين [يوسف ٣] فأحسن القصص، هو الذي يوحي بالحقيقة، التي تعتقَد، ويعمل بها ويهتدى بها، وقوله: ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ [الكهف ١٣]

فإذا تأملت قصة أهل الكهف في حشو ذاك التاريخ، فلن تخرج منها بطائل، وإذا أمعنت فيها من خلال القرآن الكريم، أدركت حقيقة القصة وأبعادها، مع ما في أسلوب القرآن الكريم من التركيز في كل قصصة على مواطن العبرة، دون الدخول في الجزئيات الخاصة، التي لا تنتهي .

ب ـ المسلمون وتدوين أحداث التاريخ :

كان حدث نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حدثا تاريخيا بارزا، فاصلا بين عهدين : عهدِ الفوضى والاضطراب وعَمَهِ الرؤية ـ وقد ولّى هذا العهد ببعثته عليه الصلاة والسّلام ـ وعهدِ الضبط والإتقان، وجلاء الرؤية، والثبات، ووضوح الجادة، وهذا قد بدأ بولادته صلى الله عليه وسلم وبعثته فقد أصبح لأحداث التاريخ شأن آخر، وتوجه هادف، ومنزلة تشريعية، إذ لم تعُدْ تلك الأحداث، تروَى في المجالس لإمتاع السامعين، أو تجييش عواطفهم، أو تضييع الوقت بها لقلة ما يفعل، وندرة ما يفكَّر فيه، وإنما أصبح التاريخ من هذا العهد، مرتبطاً بالوحي، يسجل آيَه، ويضيء غوامضه ويزيل ما عسى يتبادر إلى الأذهان من سوء الفهم : بحمل الآي على غير محاملها، ولهذا عُني بأسباب النزول – وهي أمور مادية، إن لم تسجل حينها، تنسى أو تغير – وكذلك بالوقائع الشخصية، والأحداثِ

الزمانية والمكانية، التي يدقّق في عناصرها إبان وقوعها، حتى تكون سالمة من عرضة الاختزال، أو البتر، أو االنسيان، أو الزيادة والنقصان، إن طال عليها الأمد .

وبهذا أصبح للتاريخ على يد المسلمين منهج آخر، وهدف أنبل، ومقاصد نائية، لها أرسوا دعائمَه، وابتكروا مفاهيمه ومعالمه، وقادوا مسيرته بكل أمانة وأمان، وكان الدافع إلى ذلك، هو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم التي جاءتهم كالسَّحِّ الهاطل على مفازة جرداء قاحلة، فاهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج .

وكان أول ما بدؤوا به، هو تسجيل تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلم كما وقعت مشاهَدة مرئيةً ومسموعة، من لدن ولادته إلى أن لقي ربي عز وجل .

ولا يعرف في الأنبياء، ولا في عظماء البشرية، عظيم أُو ليت سيرته – من الرعاية، والعناية، والسداد في التدوين، والترتيب في الأحداث – ما أوليت سيرة نبي الهدي صلى الله عليه وسلم، وليس هذا كلا ماً يلقى على عواهنه، وإنما هو حقائق ملموسة يدركها من مصادرها كل منصف لبيب .

ج ـ مناهج تدوين الأخبار لدى المسلمين

برّز المسلمون على غيرهم من الأمم في ابتداع منهج المرويات، الذي استمدوه أساسا من آي القرآن العظيم، ومن توجيهات النبي الكريم، وقد سلكوا في هذه الأنحاء مسلكين، هما من أخطر المناهج في التوثيق، وأسدّها، وأقومها، وأقواها.

أحـدهما : مـسلك المـشاهدة والمعاينـة ، فالـذين نقلـوا جزئيـات وتفاصـيل هــذه الـسيرة ، شــاهدوا وحــضروا ، ورأوا ، وسمعــوا أو أخــذوا عمـن شـاهد وحـضر وسمـع ، ومـا رآه الإنـسان لا ينـساه ، ومـا حـضره لا يزيد ولا ينقص فيه .

وثانيهمـا مـسلك الإسـناد ، بالنـسبة لمـن لم يـشاهدوا ، فقـد نقـل إلـيهم ذلـك بوسـائط رجـال معـروفين – عدالـةً ، وتقـى ، وحـسبا ، ونـسبا ، وموطنـــا ، وولاء ، وتحريـــا للـــصواب ، وعلمـــا ، ومعرفـــة – مـــشهورين بالدرايـة ، والبحـثِ عـن العلـم ، والتربـع في حلقاتـه ، والتـزود مـن موائـده . وهـذان المـسلكان مفقـودان تمامـا في نقـل سـير الأنبيـاء الـسابقين ، فـإذا وَجـدتَّ فيهـا مـن يحكـي أنـه رأى وسمـع ، فـلا تجـده معروفـا ، ولا منـسوبا ، ولا تـستطيع أن تقطـع بأنـه مـن أصـحاب ذلـك الـنبي أومـن أعدائـه ، أو مـن المتـأخرين عـن زمانـه ، المفتريـن عليـه ، ثـم إنـك أحيانـا تجـد أن مـا بينـه وبـين ذلـك الـنبي مـن أزمُـن ، هـي مفـاوز تقطـع فيهـا الأعنـاق ، ويـضل فيهـا القطـا ، فـأكثرُ مـا ينقَـل عـن هـؤلاء الأنبيـاء ، ينقَـل بأسـانيد مهلهلـة معـضلة ، لا يـدرَى كـم واسـطة سـقط منهـا ، وهـذا هـو الـذي يعتمـده أهـل الكتـاب في غالـب أخبـارهم ، وهـو لـيس بحجـة عنـد المـسلمين ، ولا يعتمدونـه لا في الفـرائض ، ولا في النوافـل ولا في الأخبـار ، إذ هـو عنـدهم مـن قبيـل الـضعيف الـذي لا يحـتج بـه ، وبـذلك يتـضح لنـا البـون الـشاسع بـين مـنهج المـسلمين في التوثيـق ، ومـنهج غيرهـم ، فـإن أَفْلَـك في الأمـر مُفْلِـك ، فليُـرِنا مـا عنـدهم ولْيَـرَ مـا عنـدنا حتـى يـستجلي الأمـر . وبهـذا المـسالك أصـبحت حيـاةُ محمـد صـلى الله عليـه وسـلم الحافلـة ، لا

يكتنف الغموض أي زاوية من زواياها ، وبات متعذرا على الوضاعين الأفهاء أن يدخلوا في سيرته ما يكدر صفوها ، أو يدُسُّ فَوْعها ، بعدما غدت درةً ناصعة ، وبدرا منيرا في سماء الحقائق التاريخية الموثقة وفي تاريخ البشرية كلها .

والفَنِيخُ من الرجال ممن لم يشمر عن ساعد الجد ، قد يحجو قيلنا هذا إنشاء مرصعا ، وجملا منمقة ، لا تمت للحقيقة بصلة ، ولكن من سَبر كتب التاريخ الإنساني والإسلامي ، سيدرك أنني ما عدوت الحقيقة فيما قلت ، بل لم يرقَ قلمي إلى مرقَى الصفة الكاشفة الكاملة لما هو موجود ، وأُراني فنِشتُ في الوصف ، واختصرت فيما ينبغي فيه البسط ، لأن المقام لا يستجيب لأكثر من إعطاء صورة مصغرة عن التاريخ عند المسلمين .

والدافع لهذا التفاني في خدمة السيرة النبوية – _ ومعالجتِها بأرقى المناهج التي لم ترق البشرية إلى تعميمها على معارفها – هو حب الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم حباً يجل عن الوصف ويفوق الاعتياد – ألم يقل عروة بن مسعود لقريش – واصفا ما رآه من طاعة ومحبة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم له – :" واللّهِ لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى ، والنجاشي ، والله إنْ رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابُه ما يعظم أصحابُ محمد – صلى الله عليه وسلم – محمدا ، والله إنْ يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتتلون على وَضوئه ، وإذا تكلم خفَضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون

إليه النظر تعظيما له" ... [1]

وهذا الحب من الصحابة لنبيهم صلى اله عليه وسلم كان منبعُه إدراكَ قيمة ما جاء هم به من الوحي الإلهي، الذي أخرجهم من تلك الجاهلية الجهلاء التي كانوا فيها، لا يؤبَه بهم، ولا يكترَث لهم، مقموعين في جزيرتهم، خاملين فيها، سجناءَ في أرجائها، يَفنَخُهم الإملاق، ويطحنهم الانفياق، واليومَ لهم الدنيا تقوم وتقعد، وهم السادة والقادة –، بُعيد ما كانوا صعاليك، وسراق الحجيج، يفتحون القلوب قبل فتح البلدان، ويبثون العدل والإيمان، ويبنون حضارة إنسانية، أذكت روح الحياة وولادةٍ جديدة في العالمين، وفتقت مواهب وعبقريات، وأعلت من قيمة العمل الصالح، والإيمان الصحيح، وجعلت ميزانها، قولَه تعالى : " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " [الحجرات /١٣] وأعطت كل ذي حق حقه، وأصبحت الخليقة سواسية، كلها تُصوِّب وجهها لرب واحد، ومعبود واحد، بعد ما كانت تصوبه لآلهة متعددة، من شجر، أو حجر، فتحددت بذلك الوجهة، وتجمعت القوى العقلية بفضل الوحي، فأنتج هؤلاء ما أنتجوا من علوم، تَدين البشرية بالفضل لهم فيها إلى اليوم .

***

(١) أخرجه البخاري في الشروط - باب الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب - ٣٨٩/٥/ الفتح

المحور الخامس

أثر النبوة على المجتمع المكي

أ- الآثار النفسية

١- تقديم :

كل ما نقرره من آثار النبوة خاصاً بالمجتمع المكي، فهو من وجهة أخرى عام، يسرى على جميع المجتمعات، فالأمرُ الذي صلح عليه المجتمع المكي، هو الذي صلحت عليه سائر المجتمعات، والوحيُ الذي عرفته أرجاء مكة، هو الذي سرى للعالم كله، فأصلح من شأنه، كما أصلح من شأن مكة حذوْ القذّة بالقذّة .

وإنما أفردنا المجتمع المكي بالكلام، لأنه هو أول مجتمع، لاحت عليه آثار النبوة، وفيه كانت بذرتها الأولى، وفيه تزكّى وتربى أولئك الأساطين، وتلك النفوس، التي حملت هذا النور للعالمين، ثم إنه بالمقارنة بين ما كان عليه هذا المجتمع من الانحراف، وما آل إليه من الاسقامة والالتفاف، تتجلى نعمة الله على العالمين كافة .

إذن البداءة بالمجتمع المكي، بداءة طبعية، وتقديمه على ما سواه، هو تقديم إلهي،وتكريم رباني، لا نبدئ فيه نحن ولا نعيد ،و إننا في هذا البحث، لسنا بصدد إحصاء كل حادث حادث من حوادث النبوة في العهد المكي، لأن ذلك، يستوفىَ في مجلدات، إذ ما من حادث – كان جليلا أو صغيرا – إلا وله أثر على المجتمع المكي، الذي انتقل بفضل الوحي الإلهي من مجتمع ممزَّق، موغل في الجهالة، والنعرة العمياء، إلى مجتمع موصول، منسجِم، موحَّد، وحسبُنا هنا أن

نرصد الأحداث البارزة، والاثار الضخمة، المحدِثة لتغييرات هائلة، إذ ما سواها، يؤول إليها، وينضوي تحت توجيهاتها .

ثم فلْيعلَمْ أن كل نص كان في لفظه خاصا بأهل مكة، أو شخص بعينه، فإنه في معناه عام ينطلق على جميع المكلفين، إلا ما ندر – والنادر لا يؤثر في المجرى العام – إذ العبرة بعموم الخطاب لجميع المكلفين، في جميع الأزمنة والأمنكة إلى قيام الساعة، وتشخيصُ المجتمع المكي، إنما هو أنمودج يقاس عليه غيره، إذ العموم المذكور، حقيقة، وخصيصة من خصائص الرسالة الخاتمة، وبرهان ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كانت بعثته رحمةً للعالمين، وعامة للخلق أجمعين، إنسِهم وجنهم قال تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء ١٠٧] وقال صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة : " إنما أنا رحمة مهداة " (١)

قال أبوبكر بن طاهر : " زين الله محمدا صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة، فكان كونه رحمةً، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، وحياته رحمة، ومماته رحمة" . . . (٢)

وقال صلى الله عليه وسلم من حديث جابر بن عبد الله : "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر،

---

(١) أخرجه الحاكم – ٣٥/١/ وعنه البيهقي في الدلائل – ١٥٨/١/ والطبراني في الصغير /١/ ٩٥/ . وقال الحاكم : " صحيح على شرطهما، وقد احتجا جميعا بمالك بن سعير، والتفرد من الثقة مقبول " ووافقه الذهبي .

(٢) انظر سبل الهدى والرشاد – ٤٦٤/١/

وجعلت لي الأرض مسجدا و طهورا ، وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة " وفي لفظ وبعثت إلى الآحمر والأسود (١) يعني الجن والإنس .

وحادثة النبوة كانت رجَّة مدوية في العالم بأسره، وصرخةً طار صداها في الآفاق، وشغل الناس عربهم وعجمهم، إنسَهم وجنهم، وصغيرهم، وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وكلهم يتقصى أخبارها ، ويتتبع آثارها في مكة وخارجها ، ويترقب ما عسى أن تسفر عنه المعركة المحتدمة علانية بين التوحيد والشرك، والإيمان والكفر ، وكانت قريش ألقت بكل أَجْرُنها في المعركة ، محاولةً إطفاء نور النبوة في مهده، والقضاءَ عليه نهائيا قبل نشوه وامتداده، وصرفَ الناس عن مغزاه ومقتضاه، وهيهات هيهات أن يبلغوا ما في صدورهم، وأنى لهم أن يطفؤوا نور الله، وأن يمحوا آيات الله، وأن يردوا قدر الله، قال تعالى : ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [التوبة ٣٢]

وكان الناس إزاء هذا الحدث الجلل أصنافا :

صنفاً متربصا حذرا ، ينتظر ما تسفر عنه المعركة ومن تدور عليه الدائرة، وهؤلاء هم العرب بأطراف الجزيرة، يرقبون ماذا تفعل قريش مع رسولها صلى الله عليه وسلم، فإن آمنوا به، دانت الجزيرة بما دانوا به، وإن انتصروا عليه وجحدوا دعوته، ووَأَدُوها في طفولتها ، فهم أدرى منهم بها وبه .

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم – ٥١٩/١/ والصلاة – ٦٣٥/

وصنفاً خائضا للمعركة، نازلا فيها بكل ثقلة - ووراءه من الجبناء من يمده بالمدد، ويعينه بالعدد إن استلزم الأمر ذلك - متوليا كبرها تارة بالتهديد، وتارة بالمساومة والإغراء، وتارة بالتشكيك، وتارة بتعذيب النساء والعبيد، الذين ليس لهم عصبية تحميهم، وآخَر ذلك، وأشنعه، تقرير قتل نبي الأمة، ورسولها الأمين.

وهكذاتمر الأيام والشهور والسنون، فإذا الأمر على غير ما يتوقعون، والنازلة على خلاف ما يأملون، إذ كان الحق يزداد إشعاعا وتألقا، ويكسب كل يوم أنصارا ودعاة له في خِيرة صفوف أهل مكة، ويزداد اتساعا، وتنتشر أفياؤه، وتتقلص أفياء الشرك والكفر، كالشمس تشرق بعد ليل داج، باسطةً أنوارها على أماكن الظلام الغابر، مضيئةً جنبات الكون المعمور شيئا فشيئا، وكلما اشتد طلوعها، ازداد تألقها ولمعان بريقها، وانداحت آفاقه، حتى نسخت بأشعتها كل أرجاء الكون.

٢- تجلِّيّات هذه الآثار

هذه الآثار النفسية، تتجلى في إعلان التوحيد، ونبذ الشرك، وخلع الأوثان، وكل ما أُلِّه من دون الله عز وجل، وردِّ الأمر كله له عبادة، وقصدا، وسؤلا، ورجاء وخوفا، ورغبة، ورهبة، ونسكا، وكفاية، وخشية، وإنابة.

وهذا الأثر، هو أعظم الآثار، وأكثرها جدلا، وأعظمها إثارة للغرابة لدى كفار قريش، وأطولها مدة، وأكثرها قرآنا وسنة، فما نزل فيه من الآيات، وما سَن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم

من الدلالات البينات، أكثرُ مما نزل وسُنّ في التحليل والتحريم، ومكارم الأخلاق وتنظيم المجتمع .

وكانت الدعوة لهذا الأصل العظيم، كالصاعقة على ألباب قريش، وأفئدتهم، إذ ألفوا أن ينادوا مع الله غيرَه، وأن يرجوا معه سواه، وأن يتزلفوا إليه بخلقه، وكانت الغرابة بلغت عندهم أوجها، حتى قالوا :﴿ أجعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيءٌ عُجَاب، وانطلق الملأُ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيءٌ يُراد، ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إنْ هذا إلاّ اختلاق، أأُنْزِل عليه الذِّكر من بيننا بلْ هم في شكٍّ من ذكري بلْ لما يذوقوا عذاب﴾ [ص - ٨].

فتأمل كيف أَغْروا أتباعهم بالتمسك بآلهتهم المتعددة، وأنكروا أن يكونوا سمعوا في دين عيسى – وهو الدين الأخير – بالدعوة إلى عبادة إله واحد، فكذّبوا من جهة على ملة عيسى، وهي كملة محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الأصل، واستغربوا من جهة ثانية ما لم يكن غريباً، وعَدُّوا ما هو غريب من عبادة آلهة متعددة مألوفا، ودأباً مستمرا في القرون والملل التي خلت قبلهم، وجمَعوا بذلك بين النقيضين المتباينين غاية التباين .

وكان القرآن الكريم ينزل لتقرير هذا الأصل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ ذلك ويطبقه ويدعوا إليه، حتى آلت إليه النفوس، واطمأنت إليه، واستقامت عليه .

فإن قيل : فما السر في البداءة بهذا الأصل دون الأصول الأخرى التي لا تقل عنه أثرا، وليست دونه خطورة ؟ كالدعوة لمكارم

الأخلاق، والتراحم، والإيثار، والسماحة، والتآلف، والتآزر في النوائب، وإقامة العدل، فهذه كلها أصول، لا تستقيم المجتمعات إلا بها، ولا تسعد إلا عليها، ولا تتحضر إلا بها ؟

فالجواب أن كل ما ذكر، هو فروع بالنسبة لهذا الأصل، وإقامة هذه الأصول دون ذاك، كإقامة بنيان على رمال متحركة، سرعانَ ما يندكُّ ويتهدم .

ويجلو لنا ذلك، أن كل ما ذُكر من الأصول، إنما هي لوازم وآثار لذاك الأصل، فإذا لم يوجد هو، فلن توجد هي محققةً، مقررة، راسخة ثابتة، وإن كان يخيَّل لمن لم يدرك حقيقة الأمر أنها موجودة، وهي بالفعل غير موجودة، وإن كان تتراءى لنا أشباح، وأسماء فارغة من محتواها، من مسمى مكارم الأخلاق، والتعاون، والعدل، والتراحم . . . إلخ .

فآل الأمر إلى أن البدءَ بهذا الأصل، هو طبعي، وفطري في آن واحد هو طبعي، لأن الله تعالى، هو أصل كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه، وأولُ ما يجب على كل مكلف، أن يعرف خالقه وموجده من العدم، وأن يعبده حق عبادته، شكراً له على ما أنعم به عليه من نعمة الوجود، التي لولاه لكان معدوماً، والعدم ليس بشيء، وليس فيه من خصال الكمال شيء، فإذا عَرف العبد ربه بجلاله وجماله وتجلياته بأسمائه وصفاته، أحبه، ثم عبده، وتقرب إليه، لأن من شأن المعرفة التفصيلية أن تُورِث المحبة، ومن شأن المحبة أن تفضي إلى محبة المحبوب، ومتابعتِه، والاستجابةِ له، ومنافرة ما ينافره،

ومعاداة ما يعاديه، ومحبة ما يحبه.

هذا شأن المحب الصادقِ المحبة، لا يخالف محبوبه في مرغوبه وممقوته، والله تعالى ابتدأ كل شيء – إحسانا منه – فخلقه، ومن شأن المخلوق أن يقابل هذا الإحسانَ بإحسان في مُكْنته ووُسْعه، وهو إحسان عبادة هذا الخالق، فإذا انصرف العبد لخالقه بعبادته له حق العبودية، والتوكلِ عليه حق التوكل، وخشيته حق الخشية – صح أن نقول عنه : إن هذا العبد قد رَد الأمور إلى أصولها، وتمسك بالحقيقة الكبرى التي خُلقت الخليقة كلها لها، وهي عبادة الله تعالى، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق، وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذز القوة المتين ﴾ [الذاريات – ٥٦- ٥٧- ٥٨–] وقال :﴿ ألم ترأن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ [الحج – ١٨]

فالآية الأولى نص في أن كل مخلوق، إنما خلق لعبادة الله، والثانية دلت على أن هذه العبادة استجابت لها الأكوان كلها بمخلوقاتها – غير بعض الجن والإنس – بالفطرة والجبلة، فهي خاضعة لله، ساجدة له، لا يتصور منها خلاف ذلك، وإنما الذي يتصور منه خلاف هذا التسخير، زمرةٌ من الجن والإنس، فهؤلاء فيهم المطيع العابد، المنسجم مع الأكوان، وفيهم العاصي المارق، الخارجُ عن سنة جميع المخلوقات، بمقتضى ما منحه الله من الإرادة، وما أولاه من نهية، ولذلك يحاسَب وحده – لهذه الإرادة – فيثاب إن أطاع، ويعاقب

إن عصى وأضاع .

وبناء عليه فنكران الاعتراف لله عز وجل بأحقية العبودية، وعدم عبادته بالفعل يمثل مخالفة لنواميس الكون، وجريا في غير مجراها، وتوجهاً معاكسا لتوجهها، يؤدي إلى اصطدام وفساد، لأن من شأن المعاكسة أن تنتج ذلك، ومن شأن الانسجام في توجه موحَّد، أن يؤدي إلى غاية مقصودة، فإذا شاهدنا بالعيان طريقين، أحدهما مسلوك للمارة ذاهبين فيه لأغراضهم، والثاني مسلوك لهم قافلين فيه لمساكنهم، فلن نتصور أن يكون هناك صدام، وفوضى، وتعثر في الطريقين، لأن كل طريق يؤدي إلى مقصوده. ويُوصل إليه من أقرب نقطة، بخلاف طريق واحدة، فيها الرائح والغادي، فهذه تجد فيها ازدحاما، ومشاكسة، وتعثرا، وفسادا في المال، والأرواح، والأعراض، ولابد، ومن هذا المثل التقريبي المادي، ندرك أن الكون كله يسبح لله، ويحمده، ويمجده، ويسجد له، ويعبده، والكافرُ يتنكر لهذه الحقيقة، ويحاول طمسها، ويسعى في تغييرها، أو إزالتها، فالكون كله في اتجاه منسجم، وهو في اتجاه معاكس، مخالفٍ للسنن الكونية، والفطرية، والبشرية، لذا يعتبر مجانفاً عن الطاعة، مخالفاً للقانون الإلهي الكوني، والتشريعي، والفطري، وهذا هو السر في التعبير عن فعله هذا بالمشاقة في قوله تعالى: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين، نوله ما تولى ونصله جهنم، وساءت مصيرا ﴾ [النساء – ١١٥].

والمخالف للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، هو في شق مخالفٍ لشقهم، إذهم في اتجاه، وهو – وحده – في اتجاه معاكس،

ولـذلك اسـتحق أقـصى العقوبـة، وهـي تخلـي الله عنـه بقولـه : ﴿ نولـه مـا تـولى﴾ ويكفـي المـرء خِـذلاناً وخـسرانا وبَـوارا، أن يـسلمه ربـه لنفـسه، ومـن أسـلمه ربـه لحظـة، خـسر و هلـك، وكـان في خـبر مـن غـبر، وفي عداد من أصلاه الله نار جهنم، وساءت مصيرا .

فـتلخص مـن هـذا أن العبـد لا يأخـذ موقعَـه الحقيقـيَّ في الكـون: مـن الانـسجام، والأخـذ والعطـاء إلا بعبـادة الله تعـالى، فكـان توحيـد الإلهيـة بالنـسبة إليـه أمـرا ضـروريا طبعياً ،فطريـا ، لأن فطـرة الإنـسان، فيهـا رغبـات ورهبـات، وخلجـات، وأسـئلة، لا يمكـن تلبيتهـا والإجابـة عنهـا إلا بتأليهـه تعـالى، وآنـذاك تـسكن الفطـرة، وتنقطـع أسـئلتها، وتطمـئن، كمـا قـال تعـالى :﴿ ألا بـذكر الله تطمـئن القلـوب ﴾ [الرعد — ٢٨] .

والفطـرة مهمـا نـأت عـن هـذا الأصـل _ بمـا تـراكم عليهـا مـن رانِ الـذنوب واجتيـال الـشياطين _ فإنهـا إذا نوديـت بـه، تـستجيب لـه، ولـو بعـد حـين، لمـا طبعـت عليـه سـالفا : مـن معرفـة الله تعـالى المـستلزِمة لعبوديتـه، ومـن ثـم فـإن الفطـرة لا تعـاكَس، فـإذا وَجَـدت صـارخا قويـا، وداعيـا مـاهرا، وبلْـسماً شـافيا، فإنهـا تلـبي النـداء ولا تبقـى شـاردة عـن أصلها .

وعليـه، فـإذا صـح للمـرء هـذا الأصـل، صـح لـه مـا ينـبني عليـه ويـستتبعه مـن الأصـول الأخـرى، لأنهـا جـاءت في مرتبتهـا الحقيقيـة، وإذا فـسد هـذا الأصـل، فـسد مـا يتبعـه مـن الأصـول الأخـرى، وهـذا مـا يعـبر عنـه الأصـوليون بقـولهم : الإيمـان والإسـلام، شـرط في

صحة جميع التكاليف، فالكافر مثلا إذا تكلم عن الزكاة، وعما فيها من رحمة الخلق ونفعهم، فما قيمة كلامه ذلك؟ وهو متنكر لأرحم الراحمين، جاحد لعبوديته، فمن لم يحسن في عبادته لربه الذي خلقه، فهل يحسن حقا لمخلوق مثلِه إحساناً ذا بُعْدَين؟ وما قيمة مكارم الأخلاق، والعدل والتعاون إذا كان الكافر يتكلم عليها، وهو يفسد في الأرض بكفره، ويشاقق الكون كله بجحوده، ويسئ لمنظومته بسوء خلقه الممثَّل في مخالفة ربه وعصيانه، فهذا لا يقبل منه شيء من هذه الفروع.

وإن قام بها وفيها نفع دنيوي، فإنها فقدت البعد الأخروي، وهو روحها، كما فقدت قصد وجه الله تعالى بها، وما لم يكن لله، فالله تعالى لا يعبأ به.

وبهذه المقاربة يُفهم قوله تعالى: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباء منثورا ﴾ [الفرقان – ٢٣] فقد أثبت للكفار العمل، ولكن لما كان لغير وجهه، أذهبه وأبطله، لأنه رب الكون ومبدعه، فمن لا يعترف به ويعبدُه، فلا يعترف هو به ويقبل عمله، جزاء وفاقا، عادلا.

وإذ ثبت بهذا البيان أن توحيد الإلهية، هو الأصل الذي خلقت لأجله الخليقة، وما سواه تبع له، ندرك قيمة الرسالات الإلهية، من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فما أنزلت الكتب، وأرسلت الرسل، إلا لتقرير هذه الحقيقة، وتثبيتِ هذا الأصل الذي يقوم عليه الكون كله، قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي

إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء – ٢٥]

وقال صلى الله عليه وسلم : " قولوا لا إله إلا الله تفلحوا " (١)

---

(١) أخرجه أحمد – ٤٩٢/٣/ ٣٤١/٤/ وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني – ٢٠٩/٢/٣٦٤/ والطبراني في الكبير /٥٥/٥/٤٥٨٢/ وابن حبان في صحيحه - ٨.... ١٨٣ من طريق عبد الرحمان بن أبي الزناد، عن أبيه، عن ربيعة بن عباد الديلي – وكان جاهليا أسلم – قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول : " يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا "

وإسناده حسن يصح بغيره، عبد الرحمان بن أبي الزناد، صدوق، عابوا عليه ما حدث به في العراق، لأنه أفسده البغداديون ولقنوه .

وهذا الحديث من أحاديثه بالمدينة، لأنه رواه عن أبيه، قال الفلاس : ما حدث بالمدينة، أصح مما حدث ببغداد " .

ثم إنه لم ينفرد به فقد توبع عليه، فقد أخرجه الطبراني في الكبير – ٥٦/٥/ رقم –٤٥٨٣- وأحمد –٣/ ٤٩٢/ وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني – ٢٠٧/٢/

من طريق سعيد بن سلمة، عن محمد بن المنكدر – وزاد ابن أبي عاصم : وزيد بن أسلم – عن ربيعة بن عباد به .

وقد رواه عن ربيعة بن عباد أيضا، سعيدُ بن خالد القرظي، ومحمد بن عمرو بن علقمة، وحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس.

وجميع رواياتهم عند أحمد، وبعضها عند ابن أبي عاصم أيضا.

هذا وللحديث شواهد: عن شيخ من بني مالك بن كنانة، وطارق بن عبد الله المحاربي، ومدرك بن الحارث الغامدي، ومرسليْ يزيد بن رومان، وعاصم بن عمر بن قتادة

١) فأما حديث شيخ من بني مالك، فأخرجه أحمد – ٦٣/٤/٥/٣٧١/٣٧٦/ والخطيب في تاريخ بغداد – ٢٦٣/٤/

من طريق أشعث بن أبي الشعثاء، عن شيخ من بني مالك بن كنانة، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ذي المجاز . . . فذكرالحديث

وأحد إسنادي أحمد، صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر .

٢) وأما حديث طارق بن عبد الله المحاربي، فأخرجه البيهقي في الكبرى –٢١/٦/

من طريق يونس بن بكير، عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد، عن أبي صخر :جامع بن شداد، عنه به.

وإسناده حسن، وخولف فيه يزيد بن زياد، فقد رواه أبو جناب الكلبي، عن أبي صخر، عن =

قال ابن تيمية – رحمه الله–: " وتوحيد الله، وإخلاص الدين له في عبادته واستعانته في القرآن كثير جدا، بل هو قلب الإيمان، وأول الإسلام، وآخره، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أمرت أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله " وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله ن واجتنبوا الطاغوت ﴾ [النحل – ٣٦] . . . فالعبادة، والاستعانة، وما يدخل في ذلك من الدعاء، والاستغاثة، والخشية، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والتوبة، والاستغفار، كل هذا لله وحده لا شريك له، فالعبادة متعلقة

=

رجل من قوم طارق به، أخرجه ابن سعد في الطبقات – ٦/ ٤٢/ وهذه المخالفة ضعيفة، أبو جناب الكلبي مدلس وضعيف، وقد عنعنه، والصحيح الرواية السابقة

٣) وأما حديث مدرك بن الحارث، فأخرجه الطبراني في الكبير – ٢٦٨/٣/ ٢٢/ ٤٢٢/ والبخاري في التاريخ الكبير٢/٢٦٨/ ٣٤٣/٢٠/ ح/ ٨٠٦/ وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني – ٣٦٥/٤/ وعنه أبو نعيم في معرفة الصحابة، وابن الأثير في أسد الغابة- ١٣٠/٥/

من طريق الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الغفار بن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمان الجرشي، عن مدرك بن الحارث قال : حججت مع أبي، فلما كنا بمنى، إذا نحن بجماعة على رجل، فقلت : يا أبت، ماهذه الجماعة ؟ فقال : هذا الصابئ . . الحديث

وقال في المجمع /٦/ ٢١/ : " رجاله ثقات "اهـ

كذا قال، و عبد الغفار بن إسماعيل ترجمه ابن أبي حاتم _٦/ ٥٤ / وسأل عنه أباه فقال: " ما به بأس " اهـ.

ومثل هذا لا يقال فيه، ثقة، وإنما هو صدوق، ويكون هذا الإسناد به حسنا، أو جيدا .

٤) وأما مرسلا عاصم بن عمر، ويزيد بن رومان، فأخرجهما ابن سعد، وأحد طريقيه فيه الواقدي .

بألوهيته والاستعانةُ، متعلقة بربوبيته، والله رب العالمين، لا إله إلا هو، ولا رب لنا غيره . . . [1] .

وقال ابن القيم : " وملاك السعادة والنجاة والفوز، بتحقيق التوحيد ين اللذين عليهما مدار كتاب الله تعالى، وبتحقيقهما، بعث الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وإليهما دعت الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – من أولهم إلى آخرهم :

أحدهما التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي، المتضمنُ إثبات صفات الكمال لله تعالى، وتنزيهه فيها عن التشبيه، والتمثيل، وتنزيهه عن صفات النقص .

والتوحيد الثاني، عبادته وحده لا شريك له، وتجريدُ محبته، والإخلاص له، وخوفه ورجاءه، والتوكل عليه والرضا به ربا وإلها وليا، وأن لا يجعل له عدلا في شيء، وقد جمع سبحانه وتعالى هذين النوعين من التوحيد في سورتي الإخلاص، وهما سورة :" قل يا أيها الكافرون " المتضمنةِ للتوحيد العملي الإرادي، وسورةُ : " قل هو الله أحد " المتضمنةِ للتوحيد العلمي الخبري، فسورةُ " قل هو الله أحد " فيها بيان ما يجب لله تعالى من صفات الكمال، وبيان ما يجب تنزيهه عنه من النقائص والأمثال، وسورة : " قل يا أيها الكافرون " فيها إيجاب عبادته وحده لا شريك له، والتبري من عبادة كل ما سواه، ولا يتم أحد التوحيدين إلا بآخر، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) مجموع الفتاوى – ١/٧٠/٧٢/٧٤/

يقرأ بهاتين السورتين في سنة الفجر والمغرب والوتر، اللتين هما فاتحة العمل وخاتمته، ليكون مبدأ النهار توحيدا، وخاتمته توحيدا . . . " (١)

وإذا نظرنا إلى السور المكية التي عالجت موضوع العقائد والإيمان، نجدها من جهة أطولَ سور القرآن، ومن جهة أخرى أكثرَ سورة القرآن، فقد استغرقت ثلثي القرآن وزيادة، فعددُها ست وثمانون سورة، وهذا كله يبين أهمية هذا الأصل، وما أولاه القرآن الكريم له من عناية، موضوعاً ومادة، وعددا، وكذلك نجد المُدة التي صُرفت لبناء هذا الأصل وغرسِه في النفوس، وإقراره فيها، قد استغرق من مدة التنزيل ومن عمر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثَ عشرة سنة، بينما ما يُبنىَ عليه ويتبعه من الأحكام والجزئيات، لم يستغرق إلا عشرَ سنوات .

ومن ثم فالقرآن المكي أصول، والقرآن المدني شرح وبيان وتتمة لتلك الأصول، وقد أدرك الشاطبي – رحمه الله – بنفاذ بصيرته وقوة إدراكه هذه الحقيقة، فقررها بقوله : " إذا رأيت في المدنيات أصلا كليا، فتأمله تجده جزئيا بالنسبة إلى ما هو أعم منه، أو تكميلا لأصل كلي، وبيانُ ذلك أن الأصول الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها خمسة، وهي الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، فأما الدين، فهو أصل مادعا إليه القرآن والسنة، وما نشأ عنهما، وهو أول ما نزل بمكة .. .. (٢)

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية - ص ٢٧/

(٢) الموافقات –٣/٤٦/٤٧/

وهـذا كلـه يـدل دلالـة قاطعـة، علـى أن العنايـة بهـذا الأصـل، هـو أصـل الـدين، وأساسـه، وركيزتـه الـتي لا يقـوم إلا عليهـا، ومـن يـستخف به، أو يعتبره لايستحق عناية، فإنه لم يدرك هذه الحقيقة ولا خبرها .

٣- مسالك تقرير هذه الآثار

اعتمـد القـرآن في إقـتلاع الـشرك مـن قلـوب العـرب مـن جـذوره، وإحـلال الإيمـان، والتوحيـد الحـق محلـه، عـدة منـاهج، وسـلك لهـا عـدة مسارب

منهـا مـسلك الاعتمـاد علـى رصـيد الفطـرة، الـذي تقـرر عنـدهم فيـه الاعـتراف بربوبيـة الله تعـالى لخلقـه، وأنـه الخـالق الـرزاق وحـده، المحـي، المميـت، الـضار النـافع، وهـذا النـوع مـن التوحيـد، مـا كـانوا ينكـرون، ولا كـانوا يجـادلون فيـه لا هـم ولا غيرهـم مـن الخلـق، فهـو شـيء مفطـور عليـه، مـضطر إليـه، مـشعور بـه، كـشعور الإنـسان بحاجتـه لطعام وشراب .

ومـن هنـا، فـالقرآن الكـريم، قـد جعـل هـذا اللـون مـن العقيـدة المـسلمة عنـدهم، طريقـا ومعـبرا لإلـزامهم بمـا ينكرونـه، أو يـشركون فيـه مـن توحيـد الإلهيـة، الـتي هـي إفـراده تعـالى بالعبـادة، والإنابـة، والخـشية، والرجـاء، والخـوف، والكفايـة، فكـان القـرآن يبـدأ بتقريـر حقـائق الربوبيـة، ثـم يردفهـا بـأنّ الـذي يتـصف بـذلك، هـو الـذي يـستحق أن يعبد وحده، وأن يقصد وحده، وأن يخشى وحده .

وأحيانـا يـدعو إلى توحيـد الإلهيـة، ثـم يعللـها بتوحيـد الربوبيـة،و

يجعلها دليلا عليها، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذي جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾[البقرة ٢٢/٢١]

فانظر كيف أمرهم أولا بعبادته وحده، واستدل على استحقاقه ذلك بأنه خلقهم وخلق الذين من قبلهم : من آبائهم وأجدادهم، وجعل لهم الأرض موطوءة، والسماء غطاء وسقفا، وأنزل منها ماء، فأخرج به لهم من أصناف الثمار، ما يتغذون به وتصلح عليه أجسامهم، ثم نبههم إلى أن الذي يفعل هذا وحده باعترافهم، لا ينبغي أن يجعلوا له أندادا في عبادته، وهم يعلمون أن تلك الأنداد لم تفعل – ولن تفعل – شيئا من هذا، فلا هي خالقة، ولا رازقة، ولا منزلة للماء من المزن، ولا منبتة لنبات، فمن لا يفعل شيئا لا يستحق شيئا، ومن يخلق وحده، و يملك الحياة والممات وحده، هو الذي يجب أن تصرف له شؤونها كلها وحده .

وهذه التسوية بين ما تقتضيه الربوبية من علم، وما تؤدي إليه من عمل خالص، هو الذي تقتضيه الألباب والسرائر السليمة، والواقع المشهود، فالعقل يدرك بداهة، أن من يعطي ويمنع، هو الذي يطاع ويتَّبع، والفطرةُ تصدق ذلك وتؤكده، وواقع الناس يدل عليه، فالإنسان في حال الضرورة الملجئة، ينسى جميع مألوهاته الأرضية، ولا

يتذكر منها شيئا، ولا يعلق بفؤاده من أسمائها شيء، ويلهج باسم الله وصفاته وحدها، مما يدل على أن المطبوع في السرائر والمركوز فيها، هو الخالق تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾[النحل –٥٣- ٥٤] وقال: ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم، وكان الإنسان كفورا ﴾ [الإسراء ٦٧] ثم تأمل كيف أمرهم أولاً بعبادته، واستدل على ذلك بربوبيته، ونهاكم آخرا عن الشرك، للدلالة، على أن العبادة قد يجامعها الشرك، فقد يكون العابد عابدا مشركا، كما هو حال أهل مكة، فأهلُ مكة كانوا يطوفون بالبيت، ويشركون في طوافهم، ويقفون بالمشاعر، ويشركون في وقوفهم بها، وينذرون، ويشركون في نذورهم .

وهذا يبين أن التخلي عن الشرك، أصل مستقل، فلا بد من التخلّي، والتحلّي في كل عبادة، فالتحلّي يكون بامتثال أمر الله وحده، والتخلّي يكون بنبذ ما سواه من الأنداد والشركاء والوسائط.

قال ابن تيمية : " إن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان . . . بل ربُّه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه، وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة، لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد، فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله، وهذا الوجه أظهر للعامة

من الأول، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول، لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن، وجد أن الله يدعو بهذا الوجه إلى الأول ... " (١)

يعني أنه يجعل توحيد الربوبية دليلا على توحيد الإلهية، كقوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض، أمن يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمر، فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون، فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ [يونس ٣١- ٣٢]

فتأمل كيف قدم الدليل على المدلول، قدم دليل استحقاقه للعبودية، على الدعوة للعبودية، ليؤذن بذلك أن رب النعمة، هو الذي يستحق خدمة المربوب المنعم عليه .

وتأمل كيف استفهمهم استفهام تقرير واعتراف، بأن الذي يرزقهم، ويملك أسماعهم وأبصارهم وحياتهم ومماتهم، ويدبر شؤونهم، هو الله وحده، ثم أمرهم بعبادته بصيغة الاستفهام التي تترك للمخاطب مساحة للتفكير في الدليل الذي قدم له على مدلوله، فإذا أمعن فيه النظر، وترك الهوى جانبا، فلن يقوده نظره إلا لما يطابق الدال والمدلول معا .

وهذه طريقة القرآن المطردة، يجعل أدلة الربوبية، دلائلَ على استحقاق الله تعالى للعبودية وحده، ثم في تقديم دلائل الربوبية، على

(١) مجموع الفتاوى – ٢٧/١/

المقصود الأعظم، وهو العبودية، لفتةٌ تربوية عظيمة، وهي أن الله تعالى يحبب إلى عباده نفسه، ويذكرهم بآلائه عليهم، ويخاطب فيهم ما فُطروا عليه من المحبة والطاعة لمن أسدى إليهم معروفا، ويثير فيهم نخوة البر والإحسان لمن أحسن إليهم، والطاعةِ والاستجابة لمن أرشدهم وهداهم، فلو كان شيء لا يحتاج إلى دليل، لكان استحقاقه تعالى للعبودية كذلك، لأنه أمر ظاهر لذوي الفطر السليمة من الآفات، ولأن استحقاقه تعالى للعبادة أوضح من الذكواء في رابعة النهار، والدليلُ إنما يقدم فيما يخفى ويحتمل، ومع ذلك، فالله تعالى استدل على عبوديته بربوبيته، ليعلِّم خلقه أن أمور الدين، مبنية على الدليل، ومؤيدَّة به، ومحتاجة إليه، لأنه هو عمادها وقوامها، والقاعدة المطردة، هي قوله تعالى :﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة —١١١]

ومنها مسلك تقرير المماثلة والندية، بين العابد ومعبوداته الأرضية الباطلة، فالله عز وجل، يذكر في أي كثيرة للمشركين، أن معبوداتهم، ماهي إلا عباد أمثالهم، مربوبة، مفتقرة لربها، لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرا ولا نفعا، وإذا كانت كذلك، فلا مزية لها عليهم، وليس لها من الصفات، ما تستحق به أن تعنولها الوجوه، ولا أن تقدم لها القرابين، ولا أن يخشى منها، ولا أن يرجى منها ضر أو نفع، والمشرك العابد لها، فيه من صفات الكمال ما ليس في معبوده الجامد الهامد .

وقد كان العاقل منهم إذا أفاق من سكرة جهالته، أدرك أن هذه المربوبات لا تستحق ما يقدم لها وما يعتقد فيها .

هذا وقد لون القرآن الكريم في تقرير هذه الندية الأساليب، وأفاض – لبسطها، وتقريبها للأذهان – في العبارة، قال تعالى : ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين، ألهم أرجل يمشون بها، أم لهم أيد يبطشون بها، أم لهم أعين يبصرون بها، أم لهم آذان يسمعون بها، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ [الأعراف ١٩٤/١٩٥]

فتأمل، كيف قرر الندية والمثلية بين العُباد وأصنامهم المعبودة في المربوبية لله وحده، فما دامت المماثلة قائمة بينهما، فلا أحد منهما يملك للأخر نفعا ولا ضرا، وهما جميعا مربوبون لإله مالك قادر، هو المستحق لعبادتهما جميعا .

ثم إن الخطاب ترقى ليثير كوامن النفوس، وليزيح عن الذهن غشاوته، فخاطب العابدين، بأنهم أفضل من معبوديهم، وأكمل منهم، فهم لهم أرجل، وأيد، وأعين، وآذان، ينتفعون بها، ويصرفونها مصارفها، وهذه المعبودات الصماء، لا تمشي، ولا تبطش، ولا ترى، ولا تسمع، فالأمر الطبعي يقتضي أن تكون هذه المعبودات عابدة لمن هو أكمل منها، لأن الناقص، هو الذي يحتاج للكامل، فلو كان هؤلاء العبدة يفكرون، لا استحيوا من أنفسهم، وخجلوا من الانتكاسة التي نُكسوها .

وفي هذه الآية من التقريع، والتوبيخ ما يستفز الفكر، ويدعو لإعادة النظر في الحالة غير السوية، بأسلوب سلس، مؤدب، فيه من الرفق، وبيان الحقيقة ما لا يقادر قدره .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإنْ يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعُفَ الطالبُ والمطلوب، ما قدروا الله حقّ قدره إنّ الله لقوي عزيز ﴾ [الحج ٧٣- ٧٤] .

فإذا كانت المعبودات لا تملك أن تدافع عن نفسها من يرومها بضرر، فكيف يستغيث بها ذوو العقول أن تدفع عنهم وأن تجلب إليهم، وهي إذا سَلبها ما عليها من زعفران، وما عندها من طعام أصغرُ خلق الله وأحقرُه – وهو الذباب – فلا تستطيع أن تسترده منه، فهل مثل هذه المعبودات تستحق العبادة ؟ إنه الانحدار الفكري – واللهِ – والشططُ في التقليد للآباء والأجداد .

ومنها مسلك المقارنة بين حال الموحد وحال المشرك، فبالمقارنة بين حاليهما، يتّضح لذوي الغشاوة، البونُ الشاسع بينهما، فبينما تجد الموحد في سمو، وجمع هَمٍّ، ووحدة الوجهة، ترى الكافر في تبدد شمله، وحيرته واضطرابه، لا يدري من يجيب من آلهته، ويرضيه منهم، قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون، ورجلا سلما لرجل، هل يستويان مثلا، الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ [الزمر ٢٩] .

قال الرازي : " تقدير الكلام، اضرب لقومك مثلا ، وقل لهم: ما يقولون في رجل من المماليك، قد اشترك فيه شركاء، بينهم اختلاف وتنازع، كل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجاذبونه في حوائجهم، وهو متحير في أمره، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون، وإذا احتاج في مهم إليهم، فكل واحد منهم يرده إلى الآخر، فهو يبقى متحيرا ، لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه، وأيهم يعينه في حاجاته، فهو بهذا السبب، في عذاب دائم، وتعب مقيم، ورجلٍ آخر له مخدوم واحد ، في سبيل الإخلاص، وذلك المخذوم يعينه على مهماته، فأي هذين العبدين أحسن حالا ، وأحمد شأنا . . . وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد " (١)

فالمثل فيه تصوير دقيق للحالة النفسية لكل من المشرك والموحد ، فالمشرك حالته الداخلية ، حرجة ، ممزقة ، متشوِّفة ، كلما ذكروا له صنما جرى لتقديم النذور له ، فإذا يئس منه انتقل إلى غيره، وهو في لغب مستمر ، وعذاب دائم، وهمٍّ متواصل،وقلب مشتت بين معبودات عديدة ، فلا يرضى عنه هذا حتى يغضب عليه ذاك، ولا يدنو من هذا حتى ينأى عنه ذاك، فلا يدري مَن يرضيه ممن يدَعُه ، وبذلك يكون ضائع السعي، موزَّع القوى، مفتت التفكير ضعيف العزيمة ، بخلاف الموحد ، فهو قد جمع همه على معبود واحد ، وأخلص له الوجهة ، إن أمره امتثل، وإن نهاه انتهى، وبذلك تجتمع له قوة

(١) مفاتيح الغيب – ٢٦/٢٧٧/

العقل، وقوة الإرادة، وقوة العمل، وهذا الاجتماع يحقق له المقصود من معبوده، ويرضى أيضا معبوده عنه، وهذا مثل مَن عبد الله وحده، ومن عبد معه غيره .

ولا ريب أن الأريب إذا قارن بين الحالتين، يجد بينهما فرقانا واضحا، ولا يختار إلا أن يكون عبدا لمعبود واحد، وهو المطلوب .

ومنها مسلك المقايسة والمشابهة، فالله تعالى، قد ضرب للمشركين الأمثال بمن قبلهم ممن أقام على الشرك والكفر، فأبادهم الله، واستأصل خضراءهم، والجامعُ بينهم واحد، وهو الإصرار على الشرك، والكفر بالرسل وبما جاءوا به، ولذلك ستجرى عليهم سنة الله في الهلاك، كما جرت على من قبلهم من المشركين، ممن يعرف هؤلاء ديارهم، ويمرون بآثارهم في أسفارهم ويشاهدون ما حل بهم مما ينتظر كل كفار أثيم .

وهذه المشابهة، تجعل الغافل يقيس حاله بحال غيره، فيدفعه ذلك أن يقلع عما هو عليه، حتى لا يجرى عليه ما جرى على نظيره، قال تعالى : " أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها " [محمد –١٠] يعنى وللكافرين من قريش أمثالُ ما وقع من العذاب لمن قبلهم .

وقال : ﴿ قل سيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾[النمل ٦٩].

ومسلك المقايسة من أعظم ما ينقاد له العقل، ويستسيغه بسرعة، لما فيه من نفي الفارق بين المقيس والمقيس عليه في الحكم المشترك بينهما.

ومنها مسلك السننية، فقد جرت سنة الله الكونية، والقدرية، والشرعية، بأن ينصر أهل

الحق، ويبيد أهل الباطل، ولو طال الزمان، وهذه السنة الربانية لا تتخلف، فهي جارية في الخلق مجرى آجالهم وأرزاقهم، وعامةٌ فيهم، في كل زمان ومكان .

فاطراد هذه السنة، يستدعي من ينتحل الكفر والباطل، أو يدافع عنهما، أو ينتمي إليهما، أن يأخذ الأمر على جِدِّه، ويستعد له، كما يستعد لسُنَّة الحر والبرد، والربيع والخريف، إذ سنن الله لا تتخلف إذا وجد مقتضيها بشروطه، وانتفاء موانعه، قال تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [آل عمران ١٣٧] وقال : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ [فاطر ٤٣] وقال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر ٥١] .

وهذه السننيةُ المطردةُ في نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، كانت مقررةً معهودة عندهم وعند غيرهم من أصحاب الرسالات السماوية السالفة، ولذا قال هرقل لأبي سفيان : " سألتك كيف كان

قتالكم إياه، فزعمت أن الحرب سجال ودُوَل، فكذلك الرسل تبتلَى ثم تكون لهم العاقبة " [1] وهذه العاقبة، موعود بها بالتأكيد المفيد للتحقق، قال تعالى: ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ [هود ٤٩] وقال: ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ [طه ١٣٢] وفي عزْوِ العاقبة للمصدر، ما لا يخفى من المبالغة والاحتفاء بأهل التقوى.

ومنها مسلك التنقيص والتحقير لكل معبود مربوب. إذ الغرض من ذلك، إزالةُ ما علق بالنفوس من تعظيمه وتبجيله من جهة، ومن جهة أخرى، تصحيحُ صورته للمخاطب، ووضعُه في موضعه اللائق به، وبيانُ أنه مربوب فقير، محتاج، ومن ثم ينتقل المخاطب من وضعه غير اللائق به، إلى وضع يليق بإنسانيته وكرامته، إذ من كرامته أن لا يسجد لغير الله، وأن لا يعبد غير الله، فإذا تأله لما سواه، انحطت منزلته إلى أرذل من منازل العجماوات، وتصبح هي أحسنَ منه، حيث توحِّد ربها بالفطرة، ولا تشرك معه غيره، قال تعالى: ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم، ويوم القيامة يكفرون بشرككم، ولا ينبئك مثل خبير ﴾ [فاطر ١٣- ١٤]

ففي هذه الآية من تحقير ما يعبد من دون الله، ما تنبئ عنه الألفاظ المختارة للتعبير عن ذلك، كقطمير " و" ما استجابوا " و" يكفرون بشرككم " و" خبير ".

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير /٢٥/٦/ وغيره من المواضع

وقال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ [الأحقاف ٥] فما أخسر من ينادي في وقت شدته من لا يستجيب له و هو غافل عنه، لا يعلم عن دعائه له شيئا .

ب – الآثار الاجتماعية

قد تقرر سابقا أن في المجتمع المكي ظواهرَ فاسدة، أصبحت مع مرور الزمن عادات رسخت، وإلفاً مستتبا، لا يبدو أن القوم سيتخلَّون عنها بسهولة، فهي تحتاج في إقلاعها وزعزعتها من نفوسهم لوقت، ولأسلوب خاص، ومنافحة مفحِمة، إذ هي من جهة، تمثل مصالح لأقوام، عليها يعيشون، وبها يشبعون رغباتهم، ويستجيبون لنزواتهم، ومن جهة أخرى، فقد أصبحت مع المُدَد الطويلة، كالمسلمات التي لا تطفو للسطح من جديد لتناقش، فهي أشبه بالعقائد التي لا تقبل الجدل، فإذا قبلته، فمعنى ذلك أنها غير مستقرة وثابتة، ومجزومٍ بها .

ومن ثم فالعلاج تدخل فيه عواملُ عديدة : منها عاملُ الزمن، وعامل التدرج، وعاملُ الواقع الذي يضعك أمام مفاسد قائمة وحقيقة، وليست تخمينا أو افتراضا، وعاملُ ترقب أوقات الاستعداد لإثارة أن ما هو مسلم، ليس كذلك، وأن ما توارد الناس على السكوت عنه، ليس لأنهم جميعا رضوا به، وإنما لذلك عوامل أخرى تدخل في الاعتبار:

منها استبداد الملأ بما يرغبون فيه، وفرضهم له، فيصبح مع مرور الزمن، كأنه أمر مسلم، وليس كذلك .

ومنها الدعاية الكاذبة لأمر فاسد، فيظنه الغفلة صلاحا، فيقعوا في حباله، فإذا صيدوا بها وأسفوا، لم يعد بمكنتهم رفضه، لخوفهم إما على مصالحهم الأخرى، أو على أرواحهم .

هذا الوضع المعقد، المتداخل الحلقات، المتشابك الوصلات في القضايا الاجتماعية في المجتمع الجاهلي، يحتاج لحدث غريب، يطرح التساؤل حول كل شيء، ويضع كل شيء على بساط البحث عن الحقيقة من جديد، وهذا الحدث، يتجلى في نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم،فهي نسق تاريخي هام، أدهش العربَ الذين كان عهدهم بالنبوة بعيدا حتى نسيت بينهم، وما كانوا يتخيلون أن النبوة ستكون بين ظَهرانيهم، وإنما كانوا يسمعون ذلك من بقايا بقية من أهل الكتاب، يعز تصديقهم، لما بُلي منهم ومن أسلافهم من الكذب والتحريف والتبديل لعهد السماء بالأرض، فلما فوجيء العرب برجل بينهم يعرفونه بالصدق، والأمانة، والعفة، وصدق اللهجة، وسلامة الطوية، يقول : إنه رسول الله إلى خلقه، زَعزع هذا الأمر الجللُ جميع عاداتهم ومعتقداتهم، و أوضاعهم، واصبح كل شيء لديهم، مهيأً لأن يعاد فيه النظر .

إذن كان إعلان النبوة قد زحزح ما تراكم قرونا من التسليم بأمور غير مسلمة، فكانت البداية تلك، بدايةً في العلاج لظواهر فاسدة عديدة نتناولها على النحو التالي:

١ ـ ظاهرة الأمية والجهل

كيف بدأ التغيير؟ كان التغيير منطلقا من معالجة أعتى الظواهر فسادا، وأشدَّها فتكا بالأمة، وأبعدها أثرا على حياتهم بجميع صُعُدها، التي هي أصل لما سواها، وما سواها مترتب عليها، بحيث إذا زال ذلك الأصل، تبعته الفروع تتهاوى بسهولة واحدةً تلو الأخرى، وكانت ظاهرة الجهل والأمية، هي أخطر تلك الظواهر المتفشية في العرب، والتي أدت بهم إلى أن عبدوا الأحجار، والأشجار، وتيامنوا وتشاءموا بالسوانح والبوارح، وفقدوا بذلك بصيص التفكير النوراني، الذي ينجي صاحبه من الهوَيان في هذه الهوة السحيقة التي لا قرار لها، إذ الجاهل الأمي، لا يفقه الحجج إذا قدمت له، ولا يدرك المنطق السليم إذا كُلم به، ولا يميز المصلحة من المفسدة حتى يصح أن يتسمع لما يميزله بينهما، ولا يدري مواقع الأشياء من موقعه، فهو — كما يقال قفل من حديد، أُغلق فضاع مفتاحه .

هذا المرض العضال، الفتاك، هو الذي بدأ القرآن الكريم والتطبيقات النبوية في معالجته، فكان أول ما أَنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم — كما في حديث عائشة — هو قوله : ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم﴾ [العلق —١-٢- ٣- ٤- ٥-]

فتأمل كيف بدأ بالقراءة قبل الكتابة، لأن قراءة الحروف والنطق بها، وتقويمها، سابق على كتابتها ونقشها، والإنسان إنما ينقش ما تصوره أولا، ثم انظر كيف قرن القراءة باسم الله، ليؤذن بذلك، أن كل قراءة لا تقرن باسم الله، ولا تكون به، فهي ممحوقة البركة، زائلة الأثر، ليس لها غاية، ولا فائدة .

وتأمل أيضا كيف قرن الكرامة بالقراءة، فحيثما تكثر القراءة الواعية الهادفة، تكثر الكرامة الإنسانية، إذ بها تنفتح المغاليق، وتزول الحواجز، وتقتحم العقبات .

وفي قرن التعليم بالقلم، رفع من قيمته، لأنه ضابط العلم ومحصيه، ومقيده .

قال قتادة : " القلم نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش " (١)

قال القرطبي : " فدل على كمال كرمه سبحانه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي، ما استقامت أمور الدين والدنيا " (٢).

---

(١) جامع البيان – ١٥/ج/٣٠/٢٥١.

(١) الجامع لأحكام القرآن - ٢٠/١٢٠/٢

ويكفي القلم شرفا أن الله عز وجل أقسم به في قوله :﴿ ن، والقلم وما يسطرون ﴾ [القلم ١] والربُّ إذا أقسم بمخلوق من مخلوقاته، فإنما يفعل ذلك لِلفت الأنظار لما اشتمل عليه ذلك المخلوق من عجائب صنعه، وبديع خلقه، وما يدل عليه من علمه وحكمته، وقدرته وعدله.

قال ابن القيم : " فأقسم بالكتاب وآلته – وهو القلم – الذي هو إحدى آياته، وأول مخلوقاته، الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطئت به ممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه، وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظا تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيبا يبرأ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة، على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه، ذو البأس الشديد ... " (١)

بهذه الآية المباركة، والبيان النبوي المسدد، انتقل المجتمع المكي خاصة، والعالم عامة، من غشاوة الأمية المتفشية فيهم–المانعة لهم من الشعور بآدميتهم – أميةِ القراءة والكتابة، وأميةِ التفكير، وأمية التمييز بين النافع الضار، والصالح والطالح، وأمية قراءة المآلات – إلى نور العلم والمعرفة، والتعلم والتعليم، والتقييد، والضبط، والاستنتاج والاستنباط والاستدلال، فلم يمر على المجتمع العربي إلا

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٢٨/١٢٩/

نزر يسير حتى فارت فيه المعارف والعلوم، واستنارت فيه الفهوم، فأصبح يصدرها للعالم، بعدما كان يبحث له عن عُلالة من معرفة في بيعة أو كنيسة .

وكان لحرص محمد صلى الله عليه وسلم على تعليم الجميع، أثرُه البالغ في القضاء على الأمية والجهل في ظرف وجيز .

وللمبالغة في تعليم الناس، ونشر الوعي بينهم، واستنقاذهم من براثن الجهالة، وتلقفهم من غياهب طمس الفهوم، حَصَر النبي صلى الله عليه وسلم بعثته في التعليم بقوله من حديث جابر : " إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثني معلما ميسرا " (١)

وقال : سفيان الثوري : " لا أعلم من العبادة شيئاأفضل من أن تعلم الناس العلم " (٢)

ونقل عنه عليه السلام أنه جعل فداء أسرى بدر ممن لم يكن لهم الفداء، أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة (٣)

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق – ١١٠٥/٢/حديث – ١٤٧٨/ وعند ابن ماجه في المقدمة /٨٣/١/ من حديث عبد الله بن عمرو وإنما بعثت معلما " وإسناده ضعيف، فيه داود بن الزبرقان وبكر بن خنيس، وعبد الرحمان بن زياد ، وكلهم ضعفاء

(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم –٢١١/١/ وأبونعيم في الحلية –٢٦١/٦/ والخطيب في شرف أصحاب الحديث - ٨٠ /

(١) أخرجه أحمد - حديث ٢٢١٦- عن ابن عباس بسند لا بأس به، لآن على بن عاصم، صدوق يخطئ، فتكلم فيه لذلك .:" لكن أخرجه ابن سعد في الطبقات – ٢٢/٢/ من طرق عن عامر الشعبي مرسلا وبه يحسن الذي قبله .

ولما من الله على المؤمنين ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ذكر من خواصه أنه يعلم الكتاب والحكمة، فقال تعالى: ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، يتلوا عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [آل عمران- ١٦٤] فبتعليمه صلى الله عليه وسلم لهم الكتاب سادوا، وبتلقينهم الحكمة قادوا، وبتزكية نفوسهم من أدران الجاهلية وأرجاسها ارتادوا.

وقد كانت حلقات نبي الهدى صلى الله عليه وسلم تجمع بين تعليم الكتاب والحكمة، والتربية والتزكية، أو بمعنى آخر: بين العلم النظري وتطبيقه العملي، وهذه الحكمة التي لقنوها هي سنته، وطريقته المتبعة، التي تنزل الكتاب منازله، وتضعه محامله، فوقع بذلك التوازن العلمي والعملي في نفوسهم، وانعكس ذلك على واقعهم، ففجَّر المواهب، وبجَس الاستعدادات، وشجّع الملكات، فكانت بذلك قوة دافعة - من ورائها الوحي والنبوة - اجتثت الجهل من جذوره، وحسمت داءه من أصوله، ونشرت المعرفة ورفعت لواء العلم، فإذا بالأمة الأمية، فيها العلماء الربانيون، والحكماء الراسخون، والعباد العارفون، الذين أصلوا للعلم والمعرفة، وشقوا طرائقهما، واستنبطوا مناهجهما.

وكان للوحي الإلهي في تقوية ذواكرهم، وتصحيح أفهامهم، ولمِّ قواهم العلمية، ما يتعجب منه، ففي ثلاثة قرون من

الزمان تقريباً، أنشأ هؤلاء من المعارف، ودونوا من الدواوين، وأصلوا من نظريات – بفضل التربية والتعليم النبوي والتوجيه القرآني _ ما عجزت البشرية عن تثوير مثله أو ما يضاهيه في عمرها الطويل، الذي يقدره المؤرخون القدامى بسبعة آلاف سنة – كما زعموا– (١)

فإذا تأملنا فيما قدمته البشرية في مجال المعرفة الإنسانية، من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم بكل عُجَره وبجَره، فإنه لا يصل كمُّه ولا كيفه إلى أن يضاهي ما استنبطه المسلمون ودونوه في فن واحد من الفنون .

هذا من جهة الكم، وأما من جهة المضمون، فإننا إذا استعملنا فيما أنتجه البشر من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم مقاييس العقل والواقع وحدهما، فإننا سنسقط منه شيئا غير يسير، تبدو عليه آثار الوضع والتحيز .

إن الانطلاقة العلمية الهائلة التي حققها المسلمون بفضل الوحي الإلهي في زمن وجيز، لتعتبر فرعاً من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم، وإن التفاني الذي بذله المسلمون بعد نزول" اقرأ " في تحصيل المعرفة ونشرها، وتدوينها، ونخلها، ونقلها بالتعليم والكتابة للأمم الأخرى، لشيءٌ مذهل حقا إذا ما قيس بالجهود الإنسانية السابقة .

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك –١/٢٠/فقد زعم ذلك النصاري اليونانيون، والحفريات المعاصرة تفند ذلك، وتدل على أن عمر الدنيا من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم يقدر بملايين السنين

والسر في ذلك أن الوحي الإلهي، سدد النظرة، وأزاح الحجب، فرأى هؤلاء الحقيقة العلمية فهاموا بها، وولِعوا بالظفر بها، فنسُوا أنفسهم في سبيلها، واستهانوا بكل شيء في مسارب تحصيلها، وقد كان أحدهم يرحل في سماع حديث واحد شهرا كما رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أُنيس في حديث واحد [1]

ورحل الصحابي الجليل عقبة بن الحارث من مكة إلى المدينة في نازلة واحدة من نوازل الرضاع يسأل عنها النبي صلى الله عليه وسلم [2]

فهذا الاهتبال بالعلم، والاحتفاءُ به، هو الذي أرسى الحضارة الإنسانية الحقة، التي تنعم البشرية بإنجازاتها، واختراعاتها، وتقدمِها التقني في كل زمان.

ولا يوجد عالم على وجه الأرض، ولا صاحب محبرة، أو قلم، إلا ولمحمد صلى الله عليه وسلم مِنَّة في عنقه، وللوحي الإلهي فضل عليه، سواء أدرك ذلك من أدركه، أوجهله من جهله. لأن ذلك حقائق علمية لا تجحد ولا تنكر، وإنكارها لا يزيدها إلا رسوخا.

والغرض هو بيان أن المجتمع المكي، انتقل من مرحلة الأمية

---

(1) علقه البخاري في العلم – 1/208/ ووصله في الأدب المفرد، حديث – 999/ وأحمد –3/495/ والحاكم –4/574/ من طريق ابن عقيل، عن جابر به، وإسناده حسن ويصح بشواهده.

(2) أخرجه البخاري في العلم –1/222/ وفي مواضع أخرى من صحيحه.

التي أرخت على العقول سدولها، إلى مجتمع متعلم، عارف عالم، فلما أضاء العلم جميع جنباته، زالت عوائق الجهالة، وأصبح الوحي هو الحكم، وأصبحت العقول، تتلاحق منه، وتستضيئ بهديه، فانجابت عنها الظلمة، ورأت السبل مشرعة أمامها، وزالت بذلك أعظم معضلة جثمت على الألباب قرونا طويلة .

٢ – ظاهرة التفاخر بالأنساب

كانت مشكلة الانتماء والتفاخرِ بالآباء والأجداد، من الرِّبَق التي استحكمت حلقاتهُا، ومزَّعت المجتمع إلى طبقات متفاوتة : طبقةِ ذوي الأحساب والأنساب، وطبقة الموالي والعبيد، من العتقاء أو اللصقاء بقبائل أو أسر معينة، وعلى حسب طبقة الشخص في هذا المجتمع، يكون مركزه، فإن كان حسيبا فيهم، فهو ذو مكانة يسمع له ويطاع، ويوقر، ويصغىَ إليه، ويؤخَذ برأيه، ويُصْدِر القرارات، ويشارِك في ا لمغانم، ويتحمل أدنى المغارم .

وإن كان من الطبقة الثانية، فليس له إلا الاتِّباع لأسياده، وامتثال أوامرهم، والتفاني في خدمتهم، والذود عن حياضهم، وحماية ذمارهم .

وعلى قدر إخلاصه لهم، وبراعته في كسب ودهم، واستجاشة عواطفهم نحوه، تكون له العطايا التي يتفضلون عليه بها، ويَستجلب المنح التي عليها تدور قوته، ولكنه دائما خانع لهم، يرى رأيهم، ويسير في ركابهم، ويعتبر الصواب حليفا لهم فيما يأتون وما

يـذرون، وأمـا هـو فـلا يطمـح يومـا أن يكـون لـه رأي معهـم، أو مـستقلا عـنهم، أو منابـذا لهـم، لأن ذلـك في شـريعة الجاهليـة حِجْـر محجـور، مَـن رامه من التَّبَع، سيم الذلة والهوان، وقُرِع بالعصا في اللهازم .

وهـــذه الرؤيـــة، مؤســـسة عنـــدهم علـــى أن ذوي الأحـــساب والأنـساب والنفـوذ والجـاه والمـال - مـن الجـاهليين – يعتقـدون أن اللّه مـنحهم ذلـك، لاسـتحقاقهم وأهليـتهم لـه، وأن اللّه لـولم يحـبَّهم، لمـا أولاهـم ذلـك، ولـذلك فرضـوا وَصـاتهم علـى غيرهـم ممـن اعتـبروهم حـشما لهـم، وأن اللّه هيـأهم لإسـعافهم علـى نوائـب الحيـاة، وتخفيـف العنـت عنهم .

وقـد تـستوحَى رائحـة هـذا الاسـتحقاق الـذاتي عنـدهم، مـن قـصة خبـاب بـن الأرت مـع العـاص بـن وائـل حـين أتـاه يتقاضـاه دينـا لـه عليـه، فقـال لـه: لا أعطيـك حتـى تكفـر بمحمـد " فقـال لـه :لا أكفـر حتـى تمـوت ثـم تبعـث ! فقـال : وإنـي لميـت ثـم مبعـوث؟ قـال : نعـم، قـال إن لـي هنـاك مـالا وولـدا، فأقـضيك، فـأنزل اللّه عـز وجـل : ﴿ أفرأيـت الـذي كفـر بآياتنـا، وقـال : لأوتـين مـالا وولـدا، أطلـع الغيـب، أم اتخـذ عنـد الرحمـان عهـدا ؟ كـلا سـنكتب مـا يقـول، ونمـد لـه مـن العـذاب مدا ﴾ [مريم – ٧٨/٧٩] (١)

---

(١) البخـاري في التفـسير – ٢٨٣/٨/ وفي الإجـارة - ٥٢٨/٤/ وفي البيـوع - ٣٧٢/٤/ وابـن هشام في السيرة /ج/٣٥٧/١/

وعند ابن إسحاق زيادة : فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله مني، ولا أعظم حظا في ذلك .

فهو يعتقد أن ما أو تيه هنا من مال وولد ، يؤتاه هناك، لاستحقاقه له بشرفه ونسبه، ومنزلته من الله، كما يمكن أن يستوحى ذلك أيضا من قول قريش – فيما حكى الله عنهم : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾ [الأحقاف ١١]

يقول السيد قطب – رحمه الله–: " ولقد سارع إلى الإسلام وسبق إليه، نفر من الفقراء والموالي في أول الأمر، فكان هذا مغمزاً في نظر الكبراء المستكبرين، وراحوا يقولون : لو كان هذا الدين خيرا ما كان هؤلاء أعرف به منا ، ولا أسبق منا إليه، فنحن – في مكانتنا وسعة إدراكنا ، وحسن تقديرنا أعرف بالخير من هؤلاء " (١)

فنظرتهم هذه، تشبه إلى حد مّا نظرةَ اليهود والنصارى لأصلهم الإنساني، حينما قالوا – فيما حكى الله عنهم – : ﴿ وقالت اليهود والنصارى، نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة ١٨]

هذه الطبقية التي تبقي العبيد في عبوديتهم، والأسياد في سيادتهم – فلا يشفع للمولى أعمالُه، ولا تقواه، ولا مواهبه، ولا

(١) في ظلال القرآن – ٣٢٥٨/٦/

عبقريتـه، فـتُقدمَه، كمـا لا ينحِّـي السيد عـن مركـزه فجـورُه، وفُشوره، وبلادته وبلاهته، وسوءُ تقديره للأمور - هي التي جاء هذا الدين لمحوها، ورد الأمر إلى نصابه، وتقديرِه الأول، وهو أن بني الإنسان سواسية في إنسانيتهم لا يتفاضلون إلا بالعمل الصالح، فهو الذي يقدم المرء أو يؤخره، وأما اللحم والدم، والقبيلة، والأنساب، فليست معاييرَ للتفاضل، لأنها معايير أرضية، باطلة، أنشأتها النظرة الضيقة، والأفق المستغلق للتحكم في رقاب البشرية المستوية في الانتساب لآدم، قال تعالى :"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير"[الحجرات].

_ ترى الرجلَ النحيفَ فتزدر يه ❖❖❖❖ وفي أثوابه أسـد هصور

_ ويعجبك الطَّرير فتبتليه ❖❖❖❖ فيخلِف ظنَّك الرجلُ الطَّرير

_ وقد عظم البعير بغير لب ❖❖❖❖ فلم يستغن بالعِظَم البعير

فهذا ميزان الله الذي يوزن به البشر وإذا وضع ميزان الله، طاشت الموازين الأرضية الأخرى، فلم يبق لها مصداقية، وقد جلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانه هذه الحقيقة، ففي حديث أبي هريرة : " لينتهن أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونُن أهون على الله من الجُعَل الذي يدهده (١) الخُرْء

(١) أي يُدحْرِجه ويدفعه أمامه

بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية [1] الجاهلية، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب" [2]

فتأمل هذه الصورة البشعة التي يؤول إليها من لا يريد أن يتخلى عن العصبية، وهذا التشبيهَ البليغ الذي مُثِّل فيه بالجعل الذي لا يعيش إلا في الروائح الكريهة، وفي ظلها، وفي التعامل بها ومعها، إنه تشبيه ما بعده أبلغ منه، في رسم صورة منفرِّة من كل ذي نخوة جاهلية، مبنية على عظام نخرة، وأحساب بالية .

وعن ابن مسعود قال : " من نصر قومَه على غير الحق، فهو كالبعير الذي رُدِّي في بئر، فهو يُنزَع منها بذنبه " [3]

وهذا تشبيه آخر، يبين المضايق التي زَجَّ فيها ذوُو النخوة بأنفسهم، فلا يستطيعون مغادرتها إلا بفقد أطراف منهم .

وبهذه الصرامة في التوجيه، والتصوير، والتعبير، عبَّد النبي صلى الله عليه وسلم عقبة كأداء في المجتمع المكي العربي، كانت مصدر التبديد، والتشتيت.

---

(٢) أي نخوتها وكبرياء ها

(١) أخرجه الترمذي في المناقب – ٧٣٤/٥/ وأبو داود في الأدب/٣٣١/٤/ وأحمد /٢/ ٣٦١/ وقال الترمذي :" حسن غريب "

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٣٣١/٤/ حديث ٥١١٧/ وأحمد – ٣٩٣/١/ ٤٠١/ ٤٤٩/ والزيادتان له .

من طرق عن سماك بن حرب، عن عبد الرحمان بن عبد الله، عن أبيه به، واختلف في رفعه قال شعبة : وأحسبه قد رفعه، وجزم سفيان، وإسرائيل عن سماك برفعه، وإسناده لا بأس به، وهو في حكم المرفوع

وبإزالة هذه المعرة، تلاشت الفوارق، فكان عمر الفاروق، النسيبُ في قومه، ومصعب، وحمزة، وأضرابهما، يجلسون مع بلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، لا يفضل أحدهما الآخر إلا بالعمل الصالح، ولا يتفاخر أحدهما – إن افتخر في باب الاقتداء – إلا بما قدمه لدينه، وما كسبه من أمجاد لأمته .

ومع ذلك، فهذه الآفة تظهر بين الفينة والأخرى في نفوس ضعاف، وقلوب مرضى، ولوكانت مسلمة، ففي الحديث الصحيح عن أبي مالك الأشعري أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن، الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة " (١)

وهذا من الإعجاز، ومن علامات نبوته صلى الله عليه وسلم، فهذه الآفات الأربع، كلما بعد الناس عن نور النبوة، وانطمست بينهم تعاليمها، إلا واستولت على بعض النفوس المهينة .

ومن ثم، فالجاهلية مصطلح فكري، وليست مصطلحا زمانيا أو مكانيا، وما دام فكرياً، فهو قابل للإنبات في كل زمان، وفي كل مكان، ونورُ النبوة إن انتشر، هو وحده الذي يزهق هذه الأمور ويبيدها.

---

(١) تقدم في ص ٤٣.

٣ – ظاهـرة التبـني :

كـان مـن عـادة الجاهليـة أن يتبنـى الرجـل ولـدا ينـسبه لـه، وينزلـه منزلـة ابنـه، فيـدعى باسمـه، ويخلـو بمحارمـه، ويرثـه " وكـان الرجـل في الجاهليـة إذا أعجبـه مـن الرجـل جَلَـده، وظرفه، ضـمه إلى نفـسه، وجعـل لـه نـصيب الـذكر مـن أولاده مـن ميراثـه، وكـان ينـسب إليـه، فيقـال: فـلان بـن فـلان [1]"وكـان يوجـد في المجتمـع أبنـاء لا يعـرف لهـم آبـاء، وكان الرجل يعجبه أحد هؤلاء فيتبناه،

يـدعوه ابنــه، ويلحقــه بنــسبه، فيتــوارث وإيــاه تــوارثَ النــسب، وكــان هنــاك أبنــاء، لهـم آبـاء معروفـون، ولكـن كـان الرجـل يعجـب بأحـد هـؤلاء فيأخـذه لنفسه، ويتبنـاه، ويلحقـه بنـسبه، فيعـرَف بـين النـاس باسـم الرجـل الـذي تبنـاه، ويـدخل في أسـرته، وكـان هـذا يقـع بخاصـة في الـسبي، حـين يؤخـذ الأطفـال والفتيـان في الحـروب والغـارات،ومن شـاء أن يلحـق بنـسبه واحـدا، دعـاه ابنـه، وأطلـق عليـه اسمـه، وعـرف بـه، وصـارت له حقوق البنوة وواجباتها " [2]

هـذا التـبني بهـذا الـنمط، فيـه مـن المفاسـد الاجتماعيـة مـا يعلمـه أهـل الخـبرة بالمفاسـد، كمـا فيـه مخالفـةُ المقاصـد الاجتماعيـة، الـتي لا يستقيم المجتمع إلا بها وعليها .

(١) الجامع لأحكام القرآن – ١١٩/١٤/

(٢) في ظلال القرآن ٢٨٢٥/٥/

فمن مفاسده أنه يورث من لا يستحق الإرث، فالأصل أن الإنسان يسعى ويكد في حياته، ليكون ماله لولده ومن يمت له بصلة، باعتبار أنه جزء منهم، وهم جزء من لحمه ودمه، فهو يسخو أن يضحي بجهده ووقته في سبيل أن يأخذ ماله من بعده من تربطه به رابطة النسب، فلو علَم أن ماله يرثه أجنبي عنه، لما نشط في جمعه، ولا انبعث للضنك في سبيله، وفي ذلك من مفاسد عدم انتقال التركات للمستقبلين للحياة من المودِّعين لها، ما فيه .

ومنها أن الاطلاع على العورات وعلى الدواخل والمحارم، والدخولَ عليهم، مستبشع عادة، ومرفوض اجتماعيا، لا يسوغ إلا لذي محرم، لأن أعراض الناس وأبضاعهم، لا تقدر بثمن، وإذا جرحوا في كراماتهم، يبقى الجرح مندملا إلى الأبد، لا يجبره تقويم، أو مقابل مادي، فكان الحرصُ أن لا تقع المخالطة إلا بذي محرم، ومن كان أجنبياً عن الأسرة، يعامَل في حدود اللياقة .

وتبني شخص ليس بذي محرم حقيقي، يوقع في هذا المحذور، مع ما في ذلك من زُور، به يصير محرما وهو ليس كذلك، وفي ذلك قلب للحقائق .

هذه المفاسد، لا توازيها مصلحة المتبنىَّ الذي قد لا يكون له من يلي أمره فَيَتِيهُ إن لم يتبنَّهُ أحد، لأن هذه مصلحة جزئية، بالإمكان معالجتها بطرق أخر غير هذه، وتلك المفاسد، مفاسد كلية، لا تقابل بمصلحة جزئية .

لـذا جـاء التـشريع بتحـريم التـبني، بعـد اسـتعداد النفـوس للتخلـي عنـه، لَـمَّا أدركـت مـن مفاسـده الـتي كانـت في الجاهليـة مـا أدركت : مما كان يعتبر عندهم مصالح .

وكـان مـن توفيـق الله تعـالى، أن هيـأ لاستئـصال جـذور التـبني مـن قناعـات المجتمـع المكـي، سـبباً لـه تـأثير خـاص، ووقـع قـوي علـى النفـوس، أزاحَ عـن العقـول مـا كانـت تتوهمـه مـن آصـرة ورحمـة في التـبني، هـذا الـسببُ هـو تـبني الـنبي صلى الله عليـه وسلم زيـدَ بـن حارثـة– رضي الله عنه–حتى كان يقال له : زيد بن محمد .

ولمـا أراد الله تعـالى قطـع التـبني، أمـر نبيـه صـلى الله عليـه وسـلم أن يتـزوج زينـب بنـت جحـش، امـرأةَ زيـد بـن حارثـة، الـذي يـدعى زيـد بـن محمـد، بعـد مـا طلقهـا، ليكـون ذلـك أدعـى لاستئـصال جـذور التـبني من قلوبهم .

قـال ابـن حجـر :" وأراد الله إبطـال مـا كـان أهـل الجاهليـة عليـه مـن أحكـام التـبني، بـأمرٍ لا أبلـغ في الإبطـال منـه، وهـو تـزوج امـرأة الـذي يـدعى ابنـا، ووقـوع ذلـك مـن إمـام المـسلمين، ليكـون أدعـى لقبولهم " (١)

وفي ذلـك نـزل قولـه تعـالى : ﴿ وإذ تقـول للـذي أنعـم الله عليـه، وأنعمـت عليـه، أمـسك عليـك زوجـك، واتـق الله، وتخفـى في نفـسك مـا الله مبديـه، وتخـشى النـاس والله أحـق أن تخـشاه، فلمـا قـضى زيـد منهـا

(١) فتح الباري – ٨/٣٨٤/

وطرا زوجناكها، لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا، وكان أمر الله مفعولا ﴾. [الأحزاب ٣٧]

ونزل أيضا ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواههم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آبائهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ " [الأحزاب ٤] وقال ابن عمر : " ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزل :" أدعُوهم لآبائهم . . . " (١)

فلما نزلت هذه الآية أصبح كل متبنىً يدعى بأبيه الحقيقي، فانقطع حكم التبني، ولما تزوج صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش " قالوا : تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله تعالى :" ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين " [الأحزاب ٤٠] قالت عائشة – رضي الله عنها – : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي، لكتم هذه الآية : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه . . . ﴾ (٢)

وما كان يخفيه النبي صلى الله عليه وسلم، هو إعلام الله تعالى له أن زينب بنت جحش زوجَ زيد بن حارثة مولاه، سيتزوجها، وكان قد تبنى زيدا، و يخشى أن يعيبوا عليه، ويقولوا : تزوج امرأة

(١) أخرجه البخاري في التفسير – ٣٧٧/٨/

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان /١٦٠/١/ والترمذي – ٣٥٣/٥/ وقال : " حسن صحيح "

ابنه، ، ورأى أن يؤجل ذلك إلى حينه، وأما مايرجفه المرجفون في هذه القصة وينسجونه من خيال عقولهم، فهو كذب بحت، وطعنٌ في النبوة، وإزالة للعصمة التي أثبتها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، ولا يجرؤُ على اختلاق مثل هذه الأكاذيب إلا أحدُ رجلين : إ ما رجل لايعرف ما يقول، وإمارجل لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

والغرض أنه بهذه القصة المثيرة، انقطع حكم التبني، وترك بالكلية .

٤ – ظاهرة الظهار

الظهار، هو زور ومنكر كما سماه الله تعالى في كتابه، " لأن فيه تشبيه زوجة الإنسان التي تحل له بمن لا يحل له كأمه، وأخته، وقد كانوا في الجاهلية، يعتبرون الظهار طلاقا يحرم عليهم زوجاتهم.

قال أبو قلابة " كان الظهار في الجاهلية الذي إذا تكلم به أحدهم، لم يرجع في امرأته أبدا " [1] فأبطل الله ذلك، وجعل في الظهار الكفارة، وأبقى الزوجية على ما هي عليه، قال تعالى : " وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم " [الأحزاب ٤] وقال : "الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزوراً وإنّ الله لعفوٌّ

(١) جامع البيان –١٤/ح/٢٨/٧/

غفور " [المجادلة ٢] وأولُ من ابتلي بالظهار في الإسلام – فجعل الله به فرجا ومخرجا للأمة كلها _ خولةُ بنت ثعلبة، فقد قال لها زوجها أوس ابن الصامت: أنت علي كظهر أمي، فجاءت للنبي صلى الله عليه وسلم تشكو له ذلك، وتراجعه فيه وهو يقول : " ما أراك إلا قد حرمت عليه " فما برحت حتى نزل فيها قول الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك ...﴾ الآيات [المجادلة –١/٢/٣/٤ /]

فكان ذلك تخفيفا من الله ورحمة، ورفعاً لإصر الجاهلية وتشدُّدِها وقيودها التي لم تستوحها من شرع، وإنما من نحلتها الباطلة التي شرعها كبراؤها، وتَوالىَ الأجيال على تقديسها وتنفيدها .

٥- ظاهرة الإيلاء

هذه الظاهرة، هي حلف الرجل أن لا يقرب امرأته مدة من الزمن، مِن آلى يولي إيلاء، إذا حلف، قال ابن عباس : " كان إيلاء الجاهلية، السنة والسنتين، وأكثر من ذلك، يقصدون بذلك إيذاء المرأة عند المساءة، فوقَّت لهم أربعة أشهر . . . " (١)

فرفع الله تعالى بهذا التوقيت الذي لا تطيق المرأة أن تصبر أكثر منه عن الرجل، ذلك الحيف الذي لحقها في الجاهلية، وذلك العنت الذي أرهقوا به كاهلها، فألجؤوا بذلك الحرائر إلى ممارسة الزنا سرا، وأساؤوا إليهن بالتشفي منهن وإيذائِهن بهذه المُدَد الطويلة .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن - ٣/١٠٣/

٦- ظاهرة الطلاق بغير عدد

كان أهل الجاهلية يطلق الرجل امرأته بغير عدد، وكانوا يقصدون بذلك الإضرار بالزوجة، كلَّما حلت من عدتها، راجعها، ثم طلقها (١)

وهكذا تصير بين عدة وطلاق برهةً من عمرها، فتصبح لاهي متزوجة ولاهي مطلقة، فأبطل عز وجل هذا القصد السيء، وحدَّ للزوج طلقتين رجعيتين، فإذا صار إلى الثالثة، فالزوجة بائنة منه حتى تنكح زوجاً غيره، تأديباً لهم على التلاعب بما لا يجوز التلاعب به، ورداً لهم إلى النصَفَة والعدل تجاه أزواجهم، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ الطلاق مرتان، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ [البقرة ٢٢٩]

ج- الآثار السياسية :

١- وضعية المجتمع المكي قبل النبوة:

لم يكن المجتمع المكي، وغيره من المجتمعات العربية المجاورة، ينضوون تحت لواء سياسي معين، يحكمهم، ويضبط أمورهم، ويدافع عن بيضتهم، ويقاتل بهم أعداءهم، وإنما كانوا كيانات صغيرة، من قبائل، وبطون، وأفخاذ، وعشائر، وفصائل، يَفصل في نوازلهم، ومستجدات أمورهم أشرافُهم، وعظماؤهم،

(٢) جامع البيان/٢/٤٥٦/

والشرفُ والعظمة عندهم، يورث في قبائل أو بيوتات معينة، كما يصحبه كثرة المال، والخدم، ولم يعرف فيهم ملك قط، إلا ما كان في اليمن من ملك السبئيين، والحميريين.

ولذلك، فقبائلهم بعضُها يأكل بعضا، ويغير بعضها على بعض، نظراً لعدم وجود سلطة قوية تكْبَح جماح رغباتهم، وكان القتال بينهم على أشده، لا يهدأ في قبيلة حتى يثور في أخرى، وكانوا لذلك بحاجة إلى الأحلاف، فكانت كل قبيلة، أو عشيرة تحالف الأخرى، وتدخل معها فيما يسمى بالدفاع المشترك الآن وذلك كله لحفظ المصالح الدنيوية.

٢ – موقفهم من سلطان النبوة

لما بُعِث الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم، وجاءهم بالإسلام، الذي يعني الاستسلام والانقياد الكامل لله تعالى ولرسوله، ودعاهم إلى الطاعة، والانصياع لأمره ونهيه، تأبَّت قلوبهم ذلك، وأَنِفت أن تنقاد له، لأنها تعتبر ذلك مَهانةً لها، وإزاحةً لشخصيتها، وذلة وخنوعا، الموتُ عندهم أهون منه، ولذلك صَلِف أشرافهم، واستكبروا في أنفسهم أن ينضووا تحت لواء محمد صلى الله عليه وسلم باعتبارهم له ملِكًا يريد أن يخنعهم لسطانه .

وحتى بعد خوض معارك ضاريةٍ معه، وظهورِ أنه نبي مرسل، مؤيد بالمعجزات الباهرة، التي لا موقع فيها للملوك، كان بعضهم

نفسياً لم يهيَّأ لقبول أن الرسول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم للعالمين .

ويمكن أن يستشف هذا من موقف أبي سفيان الذي يعبر فيه عن هذا الموقف بصراحة فقد " نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ الظَّهران عند خروجه لفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، وجاء أبو سفيان ، وبديل بن ورقاء يتحسسان الخبر لقريش ، ولقي أبو سفيان العباس بن عبد المطلب ، فقال له : يا أبا سفيان : هذا رسول الله في الناس ، واصباحَ قريش واللهِ ، قال أبو سفيان : فما الحيلة – فداك أبي وأمي – ؟ قال : قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه الدابة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأستأمنه لك ... فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمَك ، وأكرمك ، وأوصلك ، أما هذه – والله – فإن في النفس منها حتى الآن شيئا ، فقال له العباس ، ويحك ، أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، قال : فشهد شهادة الحق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس : احبسه بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها " فلما مر به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال : يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا

طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما قال : قلت : يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال فنعم إذن " (١)

فأنت ترى بأن سفيان – مع كل ما تقدم من دلائل النبوة – ما زال يعتبر المسألة ملكا، ولما عرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام، وأنه رسول الله، كان في نفسه من نبوته شيء، وهذا يوقفك على نفسية العربي الذي يتمرد على كل رئاسة، تعيد له توازنه وتماسكه .

٣ – تغيير الموقف بعد فتح مكة

كان فتح مكة، فتحاً بكل المقاييس : فتحاً للأفئدة، والألباب، والعواطف، والأسماع، والأبصار، التي ما زالت عليها أَكِنَّةُ الشك في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم التي كانت وُصلةً للأرحام، ورَفْواً لما تهلهلت أوصاله من نسيج الوشائج الاجتماعية، التي تهدمت، بموقف المشركين من المهاجرين، الذين صودرت دورهم وأموالهم، ولهذا لما قال سعد بن عبادة لأبي سفيان يوم فتح مكة : " يا أبا سفيان، اليومُ يومُ الملحمة، اليوم تستحل الكعبة " فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال :" كذب سعد، ولكن هذا يومٌ يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسَى فيه الكعبة " (٢)

---

(١) سيرة ابن هشام – ج- ٢/٤٠٣/٤٠٤/ بإسناد حسن، من حديث ابن عباس، وعنه البيهقي في دلائل النبوة – ٣١/٣٢/٣٣/

(١) البخاري في المغازي –٥٦٨/٧/ج/٤٢٨٠/

وفي معازي الأموي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " يا أبا سفيان اليومُ يومُ المرحمة، اليومَ يُعِز الله قريشا " [1]

هذا وقد أسلم كثير منهم على كره منهم، ثم حسن إسلامهم بعد، وكان العرب لأول مرة في تاريخهم، جمعهم الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم الذي قادهم بالنبوة إلى شاطئ النجاة، بعد أن كادت سفينتهم تغرق في بحر من الظلمات .

وبعد الخلافة على منهاج النبوة، بقى فيهم الملك إلى الآن، لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ... الأئمة من قريش " [2] وقيد هذه الإمامة بما في حديث معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه، ما أقاموا الدين " [3]

وبانضوائهم تحت لواء النبوة، أصبحوا قادةً ورؤساء وملوكا، وعظماءَ في التاريخ، لا يمكن تجاوز آثارهم وآثارِ الدين فيهم، بعد أن كانوا فصائل متناحرة، وقبائل متعاركة، وأهواءً متضاربة .

---

(٢) انظر الفتح - ٦٠١/٧/

(٣) علقه البخاري في كتاب الأحكام، بابٌ الأمراء من قريش –١٢٢/١٣/ ووصله أحمد ١٨٣/٣/ من حديث أنس بن مالك، وقال الحافظ في التلخيص ٤٢/٤/ :" وقد جمعت طرقه في جزء مفرد عن نحو من أربعين صحابيا ". قلت : وعليه فهو متواتر

(٤) البخاري في المناقب ٦١٦/٦/ والأحكام – ١٢٧/١٣/

د- الآثار الاقتصادية :

لم يكن الجانب الاقتصادي في المجتمع المكي خاصة والعربي عامة، بمعزل عن الحالة العامة الفوضوية المرتبكة، المتفككة، التي انتشلهم الإسلامُ منها انتشال المشرِف على الغرق، وكانت تجارتهم تدور على صفقات محرمة في دين إبراهيم وفي جميع الشرائع السابقة، أنتجت الفقر، والطبقية، والاستغلال، والاستعباد، وكانت عقودهم في الغالب لا تتعدى، المحرمات الآتية :

١ـ الاتجار بالربا، وهو أخطرها وأشدها، وأعوصها، فقد كان متفشيا في تجارتهم إلى أن أصبح أخطبوطا مستشريا في معاملاتهم الداخلية والخارجية استشراءً لا يقاوم، وكان له انعكاساته السلبية على الطبقة المحتاجة، التي لا يزيدها أَضعافُ الربا إلا نكدا وضيقا، وقلة ذات اليد، بينما تزداد الطبقة المرابية ثراءً، وغنى فاحشا، وقد كان كل عاقل يرغب أن يحيل هذا الوضع، يجد نفسه يَزغَم في غير مَزْغَم، وكانت أموال أهل الثراء المرابين، يُنفَق جلها على شرب المُدامة، وغِناء القِيان، وممارسة الدعارة .

ألم يكن كبيرهم أبو جهل – لعنه الله – حينما خرجوا لبدر قال : " والله لا نرجع حتى نرِدَ بدرا فنقيمَ فيه ثلاثا، فننحر الجُزُر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، فتسمع

بنا العرب وبمسيرنا وجمعِنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضُوا " (١)

ولما كان تعاطي الربا في المجتمع المكي، قد توثقت عراه، ولُزَّ بعضها في بعض وأصبح الأصاغر يرثونه عن الأكابر، كان العلاج يقتضي برهة من الدهر فكان من الحكمة والواقعية، تحريمُ ذلك بعد مروره من ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : الإشارة في القرآن المكي إلى أن ما يعتقدونه في الربا من الربح والنماء، هو في الحقيقة محق للمال، وخسارة فيه : وإتلاف له، وإذهاب لبركته.

ويكفي في المرحلة المكية طرحُ مفهوم الربا للنقاش، والاقتناعِ بأن الربا، سرطانٌ يبتلع أموال طائفة كبيرة من المجتمع، لمصلحة طائفة قلة، تنموا نمو الدود في المزابل .

قال تعالى – تشخيصا لهذه الحقيقة – : " وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله، فأولئك هم المضعفون [الروم ٣٩] فهذه الآية من الآي المكية التي أشارت إلى أن الربا، ليس فيه نماء عند الله . وقد قيل : إن الآية نزلت في ربا ثقيف، و قيل: في هديّة الثواب (٢) واستبعد هذا القولَ

(١) أخرجه ابن إسحاق – كما في سيرة ابن هشام - بسند حسن عن ابن عباس

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن - ١٤/٣٦/٣٧/

العلامةُ القاسمي بقوله : " هذه الآية شبيهة بآية : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ [البقرة _ ٢٨٦] وهي في ربا البيع الذي كان فاشيا في أهل مكة، حتى صار ملكة راسخة فيهم، امتصوا به ثروة كثير من البؤساء، مما خرج عن طور الرحمة والشفقة، والكمال البشري، فنعى عليهم حالهم، طلبا لتزكيتهم بتوبتهم منه . . . " (١)

قلت : وحتى على تسليم أن هدية الثواب داخلة في المراد بالآية، فالمناط في المسألتين واحد، وهو إعطاء المال على وجه أن يرجع لصاحبه بالزيادة

المرحلة الثانية : تحريم الربا المضاعَف تحريما ظاهراً غير صريح، وهذا كان في المدينة، وقد كانت النفوس، أكثر تهيؤاً لقبول التحريم، وفي ذلك نزل قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة " [آل عمران ١٣٠] والتقييدُ بالأضعاف المضاعفة، لا يعني أنه حلال إذا لميكن كذلك، لما علم من أنه حرام على كل حال، وإنما هو قيد واقعي، كانوا يتعاملون به، فكان الزيادة الربوية تضاعف كلما تأخر الدين

وهذه الآية، أظهر في التنفير والتحريم من الأولى، وكانت مناسبةً لزمان نزولها .

(٢) محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي – ١٨٢/١٣/

المرحلة الثالثة : تحريم الربا تحريما قاطعا، واضحا لا لبس فيه ولا غموض ولا تأويل، وقد كان ذلك في مراحل متأخرة، حينما تهيأت له النفوس، وازداد الإيمانُ قوة وتجذرا، وظهرت مقاصد الشرع جلية لذوي العقول في التحليل والتحريم، وفي ذلك نزل قوله تعالى : " وأحل الله البيع وحرم الربا " وقولُه : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ وقولُه :﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ [البقرة ٢٧٦ – ٢٧٩]

فالآية الأولى فيها تحريم الربا بلفظ ناصٍ لا يحتمل التأويل على كل حال، والآية الثانية فيها التنصيص على محق الربا بإذهاب بركته وإنقاصه، و في الآية الثالثة أمر تعالى بترك الربا، فمن لم يتركه فقد آذن بحرب من الله ورسوله، وهذا فيه من الوعيد والتهديد، ما يبعث على تركه وسد جميع طرائقه، والتخلي عنه، وهذا ما وقع بالفعل فبمجرد ما نزلت هذه الآية، كان كل من أعطى ماله بالربا، استرده وتخلى عن رباه الذي أعطاه به، وتاب إلى الله تعالى إذ لا أشقى ممن أعلن اللهُ ورسوله حربهما عليه، وهو مغلوب على كل حال، مقموع مرذول، ثم زاد النبي صلى الله عليه وسلم لهذا التحريم القاطع تأكيداً في حجة الوداع بقوله :" ألا وإن ربا الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ... [1]

---

(١) أخرجه مسلم في الحج – ٢/٨٨٩/ ح/١٢١٨/ من حديث جابر

٢) الاتجار في الخمر :

كان العربي في مكة وما حولها من الجزيرة، مولعاً بشرب الخمر، والاتجارِ فيها، أخذا وعطاء، وكانت بينهم موفورةً، ويسرفون في شربها، حتى بلغ بهم الحال إلى أن يتندروا بها، ويتفاخروا في أشعارهم وأنديتهم بمعاقرتها، والانهماكِ في شربها، وكان من لا يشربها منهم يعتبرونه عديم الشجاعة، فاقد الرجولة، بليد الإحساس، ومن يتناولها منهم، يوصف بالسخاء والشجاعة، وعلو الهمة، وحسن التدبير، ولذا قال حسان بن ثابت – رضي الله عنه – في جاهليته – مادحا لها:

_ ونشربها فتتركنا ملوكا ❖❖❖❖❖❖ وأُسْداً لا يُنَهْنِهُها اللقاء (١)

وقال آخر :

_شربنا من الدَّادِيِّ حتى كأننا ❖❖❖ ملوك لهم بَرُّ العراقيْن والبحرُ

_ فلما انجلت شمس النهار رأيتُنا ❖❖❖ تولىَّ الغِنى عنا وعاودنا الفقر (٢)

هذا شأنهم مع الخمرة الغاوية، تمكنت من النفوس، وانتشرت في المجتمع، وفشت في التجارة، ورسخ اعتقادُ إزاحتها الأحزان والأكدار، وكلهاعقائد مستتبة عند الجاهليين .

(١) ديوان حسان بن ثابت – ص ٥٧

(٢) الكامل، للمبرد – ١/٨٧

ولذا، كان من الحكمة تحريمها بالتدريج – كالربا سواء بسواء – لأن ماالستحكم لُزُوبه، لا يقلَع مرة واحدة، لذلك مر حظرها من ثلاث مراحل كلها في القرآن المدني، الذي أسس له القرآن المكي، ، في إشارته في الآية الآتية إلى مناط التحريم، وهو السَّكَر الذي يذهب العقل، ونَص في آي أُخر على تحريم التبذير، والإسراف وتحريم الإثم، فهذه الأصول غير المصرحة بتحريمها في القرآن المكي، كلها مهدت لهذا الحكم النهائي الآتي في إبانه.

ثم إن العاقل لا يعاقر ما يذهب لبه، لأن إنسانيته ومروءته إنما هي بعقله، فإذا فقده فقد فقد كل مكرمة، وذهبت عنه كل منقبة .

قال تعالى في الآية المكية : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ﴾ [النحل _ ٦٧]فالآية وإن كانت قد سيقت مساق الامتنان، إلا أن فيها التنصيص على لفظ السكر، الذي يومئ إيماء خفيا إلى أن ما كان كذلك فلا ينبغي للعاقل تناولُه، لأن هذا الوصف، يلزمه الذم بكل حال .

ولذلك امتنع بعض الناس في الجاهلية عن تناولها، وكان الصديق – رضي الله عنه منهم، فقد حرمها على نفسه، فلم يشربها في جاهلية ولا إسلام [1].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة شعبة بن الحجاج –١٦٠/٧/ من حديث عائشة، وإسناده حسن . أبي العالية عنده أيضا ،

المرحلة الأولى من مراحل التحريم، فيها بيان أن في الخمر مصالح ومفاسد، ومفاسدها أعظم من مصالحها، والعاقل لا يؤْثِر ما مفسدته أكبر من مصلحته، وهذا يَفهم منه الفطناءُ تحريم الخمر، وإن لم يصرح بلفظ التحريم، قال تعالى : " يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما " [البقرة ٢١٩] قال قتادة : "في هذه الآية ذم الخمر، وأما التحريم فيعلم بآية أخرى، وهي آية المائدة " (١)

وهذه الآية أشارت في العقول فضولَ المقارنة بين مصالح الخمر ومفاسدها، مع تقديم الحكم القاطع أن مفاسدها أو فر من مصالحها، فإذا تجرد العقل من هواه، وكانت المقارنة مسددة، لن يكون الأمر إلا كذلك .

والآية المذكورة قد استشف منها كثير من الصحابة، أن تحريم الخمر، آت في الطريق، لأن ما كثرت مفاسده على مصالحه، لا يكون إلا محرما .

المرحلة الثانية من مراحل التحريم: وفيها منعهم من معاقرة الخمر، أوقات الصلاة، وهذا فيه تقليص لمدد شربها، وفيها نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ [النساء ٤٣] " فتركها بعض الناس، وقالوا : لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، وشربها بعض الناس في غير

(١) الجامع لأحكام القرآن –٣/٦٠/٦١/

أوقات الصلاة " (١)

وكان عمر – رضي الله عنه – ممن كانوا ينتظرون فيها التحريم القاطع، وكان يدعو ويقول "اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا " (٢)

المرحلة الثالثة من مراحل التحريم، وفيها جاء التحريم القاطع، فنزل قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر، والأنصاب، والأزلام، رجس من عمل الشيطان، فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة ٩١/٩٠] قال عمر : " انتهينا" وقال الصحابة : " انتهينا ربنا " (٣)

وفي حديث أنس فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديه فنادى :"ألا إن الخمر قد حرمت، فقال لي أبو طلحة : يا أنس أرق هذه القلال، فأرقتها، فجرت في سكك المدينة، قال : فما سألوا عنها ولا راجعوها " (٤)

---

(٢) الجامع لأحكام القرآن –٢٨٦/٦/

(١) أخرجه أبو داود حديث - ٣٦٦٩// والنسائي في الأشربة /٢٨٦/٨/ وصححه الترمذي وعلي بن المديني، وأعله أبو زرعة بالانقطاع ببن عمر وأبي ميسرة.

(٢) مسند أحمد –٣٥٢/٣٥١/٢/

(٣) أخرجه مسلم – ٣- ١٥٧٠- ١٥٧١ وأخرجه البخاري /٤٠/١٠/

وبهذا التدريج مع رسوخ الإيمان المقتضي لعلم الله تعالى ومراقبته لعباده، عولج عويص من مشاكل المجتمع العربي، الذي لولا التدرج في القضاء عليه، ما عولج .

ثم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم التجارة في الخمر [1] ليبين بذلك أن تحريمها عام عموما مقطوعا به، عام لشربها وبيعها، وإهدائها، والإيصاء بها، ونذرها وكل تصرف فيها فقال صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر _ رضي الله عنه _ : "لعنت الخمر على عشرة وجوه : لعنت الخمر بعينها، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها " [2]

وبهذا أزيح عن الجزيرة العربية كلكل ثقيل، كان يهدر العقول، والأموال، ويشل الحركة، والسعي، ويقضى على المواهب، ويفقد المبادرة، ويورث الاتكالية .

إنه تشريع الله تعالى الحكيم، ورحمتُه العامة بخلقه .

وبهذا التدرج الرباني، تخلصت مكة من شر الربا والخمر تخلصا نهائيا، وكان التأسيس للتحريم النهائي، بادئا من مكة.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع من حديث عائشة –٤/٤٨٧/

(٢) أخرجه أحمد –٢/٢٥/ بسند صحيح، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى /٨/٢٨٧/ بإسناد آخر إلى ابن عمر، وفيه ثابت ابن يزيد الخولاني، مجهول الحال، لم يوثقه إلا ابن حبان، لكنه لم يتفرد به .

المحور السادس

أثـر النبوة على العالم

أ- تـقـديـم:

لسنا بصدد ذكر أدلة عالمية النبوة المحمدية والرسالة الخاتمة، لأن ذلك أمر متواتر، ومعروف لا يحتاج - حتى عند الملاحدة العقلاء - إلى كبير جهد لإثباته، وإنما نتوخى هنا أن نرصد، كيفية انتقال نور النبوة هذا، من دائرة قطرية، في مكة والمدينة، إلى دائرة عالمية.

وقد شاء الله تعالى - لحكمة يعلمها - أن تكون نقطةُ المركز التي ينطلق منها هذا الإشعاع، هي مكةَ - لكرامتها على الله، وتفضيلها على ما سواها بجعلها حرما آمنا مذ خلق السموات والأرض - ثم المدينةَ النبوية الشريفة، وهاتان المدينتان، هما معقل الإسلام، وحصنه الحصين إبان ظهوره، ثم بدأت نقطة المركز هذه تتسع من مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى أرجاء المعمورة.

ولابد أن نعلم أن التأسيس لهذا الاتساع، كانت لبناته الأولى من مكة المكرمة، وتحديداً من تقرير قريش - بحضور إبليس اللعين معهم - قتلَ محمد صلى الله عليه وسلم وتصفيةَ الدعوة بأسلوب ماكر خبيث، يدل على خسة القوم الذين أجمعوا ذلك وقرروه، ونذالةِ أنفسهم، وخطل تفكيرهم، ولما أعيتهم الحجة والبيان، لجؤوا إلى السيف والسنان، وهو في كل زمان سلاح العجزة

أمام البراهين الساطعة، التي تُشِعّ الرعب في جنباتهم، فيخافون على مصالحهم ومراكزهم.

وقد جرت سنة الله تعالى في عباده الصادقين، أن يفتح لهم الأبواب من حيث لا يظن الأعداء، فهيأ الله عز وجل لرسوله الأنصار، فبايعوه بيعة العقبة الأولى والثانية، وكانت هذه البيعة التزاماً منهم بحماية الدعوة، والذودِ عنها إلى آخر رمق، وهي أول عقد في تاريخ البشرية، ينعقد على حماية المبادئ والمثل والقيم الغالية

ب- بيعة العقبة الأولى والثانية

كانت بيعة العقبة الأولى والثانية، نقطة انطلاق توسيع الدائرة، هذه البيعة ضَرب فيها الأنصار – رضي الله عنهم – أروع مثل في الذكاء، والتفاني، وتقدير العواقب،والحماس لهذا الخير الجديد، وكانت هذه البيعة قلادة في جيد السيرة النبوية عامة، وفي سيرة الأنصار خاصة، وأبى الله إلا تخليد هذه المواقف السخية والغنية بالدلالات، التي يتلوها الإنسان،ويحس من دواخله بالتقدير، والتبجيل لهذا الجيل الفريد، وقد ترتعِص فرائصه بما يوحيه الموقف من صرامة في الفعل، وقوة في الكلمة، ونفاذ في البصيرة.

ولا نملك إلا أن نسوق النصَّ المشخِّص لذلك، تقديرا لما أبرم فيه من مبادئ خالدة، مرددين له مرة تلو الأخرى، علنا نَشفِي ما بنفوسنا من ظمأ لسماع تلك الحادثة البديعة في تاريخ الإنسانية. عن عبادة بن الصامت قال :" كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني

عشر رجلا، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء – وذلك قبل أن يفرض الحرب – على أن لانشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف " قال : "فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا، فأمركم إلى الله، إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم " (١)

وعن كعب بن مالك – وكان ممن شهد العقبة، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم _قال خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن مَعرور، كبيرنا وسيدنا ... فواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العَقَبة من أوسط أيام التشريق . . . فاجتمعنا بالشعب عند العقبة، ونحن سبعون رجلا، ومعنا امرأتان . . .. ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا، ومعه يومئذ عمُّه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلسنا كان العباس أول متكلم فقال: يا معشر الأنصار، إن محمدا منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، وهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، فقلنا : قد سمعنا ما قلت، فتَكلمْ يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، قال: فتكلم رسول الله صلى

---

(١) أخرجه ابن إسحاق – كما في سيرة ابن هشام /٤٣٣/١/ واللفظ له، والبخاري في الجهاد –٢٦٠/٧/ ومسلم في الحدود –١٣٣٣/٣/١٣٣٤

الله عليه وسلم، فتلا ودعا إلى الله عز وجل، ورغّب في الإسلام، قال : "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم " قال : فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال : نعم، والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا [1] فبايعنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن أهل الحروب ، وأهل الحلقة [2] ورثناها كابرا عن كابر، قال : فاعترض القولَ-والبراءُ يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم – أبوالهيثم بن التيهان، حليف بني عبد الأشهل- فقال :يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها-يعني العهود – فهل عسيت – إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله-أن ترجع إلى قومك وتدعنا، قال : "فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم،ثم قال : بل الدم الدم، والهدم والهدم [3] أنا منكم،وأنتم مني، أحارب من حاربكم، وأسالم من سالمكم".

وقال صلى الله عليه وسلم : " أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا يكونون على قومكم " فأَخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، منهم تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس " [4]

---

(١) أي نساءنا.

(٢) أي السلاح.

(٣) أي ما هدمتم من الدماء هدمته.

(٤) ابن إسحاق – سيرة ابن هشام –١/٤٤٢/ وعنه أحمد /٣/٤٦٠/٤٦١/ وإسناده حسن، وله شاهد عن جابر عند الحاكم –٢ /٦٢٤/٦٢٥/ وقال :" صحيح الإسناد " أقره الذهبي، قلت: أبو الزبير عنعنه، وهو مدلس، وليس من رواية الليث عنه.

هـذا الـنص لا يحتـاج لتعليـق، لأن كـل فقـرة منـه، تفـيض حيويـةً، وجـدّة، ودلالات، كـان التـاريخ وحـده بيـدر محكهـا، وميـدان تجربتها، ويهمنا أنها كانت تؤسس للرسالة العالمية .

ج–عقد المواخاة بين المهاجرين والأنصار بالمدينة المنورة

تلـك المواخـاة مبنيـة علـى آصـرة، نَبَـتْ عـن رابطـة الـدم، واللـون، والجـنس، ونيطـت بمعنـى سـامي، هـو الإيمـان الـذي يجمـع هـؤلاء الغربـاء بأهل البلد المستوطنين المستقرين.

وكانـت هـذه المواخاة، مؤسسة علـى المواسـاة علـى نوائـب الحيـاة وأزماتهـا، فالمهـاجرون قـد هـاجروا لله تعـالى، فـراراً بـدينهم مـن الفـتن، وتقويـةً لدولـة الإسـلام الأولى، وتكـثيرا لـصفها الناشـئ، تـاركين وراءهـم أمـوالهم، ودورهـم، وأزواجهـم، خـارجين مـن كـل شـيء لله تعـالى، وهـم بحاجـة للرفـد في هـذا الطريـق، ولذاقـدر الأنـصار معاناتهم، وعرفوا لهم جهدهم وإخلاصهم.

فلمـا آخـى رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم بيـنهم بـدار أنـس بـن مالـك بالمدينـة [1]بـوؤوهم الـدار، وقـاسموهم المـال والـضياع، وتفـانوا في إرضـائهم بمـا لا يتـصور إلا في ذلـك المجتمـع، حتـى مـدحهم الله تعـالى علـى فعلـهم ذلـك مـن فـوق سـبع سمـاوات بقولـه : ﴿ والـذين تبـوؤا الـدار والإيمـان مـن قبلـهم، يحبـون مـن هـاجر إلـيهم، ولا يجـدون في صـدورهم

(١) انظـر مـسلم في فـضائل الـصحابة –١٩٦٠/٤/ وانظـر أيـضا البخـاري في مناقـب الأنـصار –١٤٠/٣١٦/٧

حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر –٩]

هذا، وقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الإخاء الذي ارتفع إلى مستوى التوارث به، _حتى نزلت آية الميراث فنسخته _ لقصد معالجة مشكل اجتماعي طارئ، يتطلب توفيرالضروريات والحاجيات للمهاجرين، في بلد غير بلدهم، وبين أناس ليسوا بذويهم وأقاربهم .

فال السهيلي : " آخى بين أصحابه، وليذهب عنهم وحشة الغربة، ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة،

أبطل المواريث، وجعل المؤمنين كلهم إخوة، وأنزل : ﴿ إنما لمؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات ١٠] يعني في التوادد، وشمول الدعوة " (١)

وبعقد هذا الإخاء، انحلَّ مشكل عويص، كان يهدد المهاجرين بالمعاناة، وكان عقد الإخاء هذا، بدايةً للعقود الدالة على اتجاه الرسالة النبوية اتجاها عالميا، لتوحيد الإنسانية تحت راية واحدة، رايةِ الإيمان والدين، التي لا تنصهر الفوارق المتفاقمة إلا بها، ولا تتوحد البشرية إلا عليها .

---

(١) الروض الأنف –٢/ ٢٥٢/

وهــذا العقــد ، درْسٌ تطبيقــي في البــذل والعطــاء، وفي تعميــق الــروابط، وتجديـدها ، وتوسـيع مجراهـا ، ، تمـشيا مـع الحقيقـة الكـبرى، حقيقــةِ أن الــرب واحــد ، وأن الإنــسانية في أصــلها واحــدة، فــلا معنــى للعــوارض الــتي تــسعى لــشق صــفها ، وتمزيــق وحــدتها ، وإبعادهــا عــن حقيقتها المذكورة .

د- وثيقة تنظيم العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب

مـن سمـات عالميـة الـدعوة النبويـة ، أنـه صـلى الله عليـه وسـلم لمـا قــدم المدينــة - و بهــا مــن أهــل الكتــاب اليهــود الــذين لم يــدخلوا في الإسلام - وادعهم، ونظم العلاقة بينه وبينهم .

قـال ابـن إسـحاق : " وكتـب رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم كتابـا ، بـين المهـاجرين والأنـصار ، وادع فيـه اليهـود ، وعاهـدهم، وأقـرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم " (١)

ثـم سـاق نـص الكتـاب، وقـد رواه أبـو عبيـد في الأمـوال بـسنده إلى الزهــري، قــال : بلغــني أن رســول الله صــلى الله عليــه وســلم كتــب بهذا الكتاب (٢) وإسناده إليه إسناد حسن .

وأخرجـه أيـضا ابـن أبـي حـاتم في مقدمـة الجـرح والتعـديل بـسند صحيح إلى الزهري مرسلا (٣)

---

(١) سيرة ابن هشام - ٥٠١/١/

(٢) كتاب الأموال ص ١٢٦/١٦٣/١٩٤/١٩٥/

(٣) مقدمة الجرح والتعديل - ١٩٧/١/

لكن مراسيل الزهري، شبه الريح كما قال يحيى بن سعيد القطان [١].

وأخرجه الحافظ البيهقي من طريق ابن إسحاق، حدثني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس ابن شريق، قال أخذت من آل عمربن الخطاب هذا الكتاب، كان مقرونا بكتاب الصدقة الذي كتب عمر للعمال " [٢]

وإسناده حسن، لكنه منقطع بين عثمان بن محمد، وآل عمر، إذ لا يدرى عمن أخذه منهم، ثم إن أخذه كان وجادة، ليس سماعا وتحملا، ولم يذكرأيضاً في متنه تنظيم العلاقة بين المسلمين واليهود، لكن هذا، قد يكون من اختصار الرواة.

هذا، وقد وصله البيهقي في السنن الكبرى بعد رواية ابن إسحاق، من طريق محمد بن إسحاق الصغاني، عن معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزازي، عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده، فذكره.

وهذا الإسناد رجاله كلهم ثقات، إلا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، فهو ضعيف، وعزاه ابن سيد الناس من هذا الطريق لابن أبي خيثمة في تاريخه [٣] ومداره على كثير بن عبد الله المذكور،

---

(٤) انظر التهذيب –٩/٣٩٨/

(١) السنن الكبرى –٨/١٠٦

(٢) انظر عيون الأثر –١/١٩٧/

وهو ضعيف جدا، حتى اتهم بالكذب، واعتبر الحافظ أن ذلك إفراط في حقه .

وأخرجه أيضا أبو عبيد من طريق حجاج، عن ابن جريج قال: "في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم " وهو أيضا مرسل، وابن جريج معروف بالتدليس ولا يدرى عمن أخذها، وحجاج هو ابن محمد المصيصي، وهو ثقة من رجال الشيخين، فالإسناد إلى ابن جريج، إسناد صحيح .

وأخرجه ابن أبي شيبة عن حفص، عن حجاج، عن الحكم، عن مقسم عن ابن عباس، قال : كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار . . . الحديث [1].

والحجاج هو ابن أرطاة، وهو " صدوق كثير الخطأ والتدليس " كما قال الحافظ، وقد عنعن هنا، فيخشى من تدليسه، والحكم هو ابن عيينة، من رجال الشيخين .

وهذا الإسناد لا بأس به في المتابعات، و قولُ ابن حزم عن الحجاج بأنه " ساقط " فهو من غلوه وتشدده، إذ لم يقل أحد ممن قبله فيه ذلك،وكل ما عابوا عليه، التدليس، فإذا صرح بالسماع فهو مثل ابن إسحاق، وقال أيضا عن مقسم بن بجرة بأنه ضعيف، وهو من رجال البخاري في الأصول، خرج له حديث ٤٥٩٥- و/ ٣٩٥٤- وقولُ الساجي : " تكلم الناس في بعض رواياته " لا يستوجب الضعف المطلق.

(١) انظر مصنف ابن أبي شيبة -٣١٨/٩/ج/٧٦٢٧/ وعنه ابن حزم في المحلى - ٤٥/١١/ نص /٢١٣٩ ....

وابن حزم – رحمه الله – كثير الخطأ في الكلام على الرواة، ومن طالع المحلى بإمعان، يعرف ذلك منه .

وأخرجه ابن أبي شيبة أيضا، عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن الشعبي مرسلا : " جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقل قريش على قريش، وعقل الأنصار على الأنصار" .

وابن أبي ليلى، سيئ الحفظ، يقبل مثله في المتابعات، وليس في روايته، ولا في رواية ابن عباس التي قبله، ذكر لليهود، وقد يكون ذلك من اختصار الرواة، كل واحد اقتصر على ما حفظ، لأن الوثيقة طويلة، فيصعب على كل راو استظهارها بالكامل .

وأخرجه أبو عبيد، عن حماد بن عبيد، عن جابر، عن الشعبي أو أبي جعفر : محمد بن علي – الشك من أبي عبيد – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " وعلى المسلمين أَن لايتركوا مفروحا في فداء أوعقل [1]

وجابر هو الجعفي، وهو تالف كذاب، ومرسَله هذا، سواء أرسله الشعبي أو محمد بن علي، فإنه لا يفرح به .

وهذه المخارج المتعددة لهذه الوثيقة، كلها تدل على أن لها أصلا، وأنها على رأي بعض المحدثين صحيحةٌ _ مثل الترمذي الذي يصحح لكثيربن عبد الله بن عمرو بن عوف _ وحسنةٌ على رأي جماعة منهم، وقد اشترط الشافعي، للمرسل المحتج به أن يكون رُوي

---

(١) غريب الحديث - ١/٣٠/ مادة فرح

من غير وجه، ومسندا من وجه، وهذا قد توفر في أسانيد هذه الوثيقة، فمخارجها المتعددة تدل على أنها لا ترجع لأصل واحد .

وكيفما كان الأمر، فهي في نظري ضعيفة، ولكنها ليست بموضوعة، لأن بعض الأسانيد النظيفة لها التي ذكرنا، تأبى ذلك .

وأما ما ذهب إليه بعض الباحثين، من أنها وثيقة موضوعة، فلا يمت إلى البحث العلمي الجاد بصلة، وقائل ذلك بعيد كل البعد عن التخصص الحديثي، وليس هذا الميدان ميدانَه، ولذلك لما ركض فيه بدون جواد، كبا على وجهه، ويظهر ذلك من تعليلاته الباردة التي علل بها حكمه، وهو أولاً لم يستوعب طرق الوثيقة ولا درسها، وثانيا اتهم ابن إسحاق بما لم يتحققه عليه، وهيهات أن يصفو له ما كدَّر بتخميناته الواهية .

ويهمنا من هذه الوثيقة ما يتعلق باليهود من قوله : " وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين، ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم نفسه، وأثم، لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار، مثل ما ليهود بني عوف . . . إلخ "

فهذا النص، يعتبر من أقدم النصوص التي عرفها المؤرخون في تنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم، فقد أقر اليهود على دينهم، وأمنهم على أموالهم وأنفسهم، وأنهم يتعاونون مع المسلمين في الدفاع عن بلدهم، وعن دمائهم وأموالهم، وهذا يكذب ما تذهب إليه

الدراسات ذات الأغراض السيئة : من أن المسلمين، لا يعترفون بغيرهم، وأنهم يتعاونون فيما بينهم دون غيرهم، وأنهم دائما يميلون لجنسهم دون الأجناس الأخرى، وأنهم إن حكموا، لا يبالون بمن سواهم، إلى ماهنالك من تلك التهم التي تلفَّق ضد المسلمين في أوكار التجسس العالمية، لا في المنتديات العلمية التي يتحرى أهلها قول الحق .

وخلاصة الأمر أنه بهذه الوثيقة، بدأ الإسلام يمهد للرسالة العالمية، التي كلها عدل ورحمة .

هـ – غزوة بدر وأحد والخندق – إشارات، وأبعاد .

لماالتحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحاب هذه البيعة في طيبة الطيبة، جاء وقت الوفاء، في غزوة بدر الكبرى، التي كانت فيصلا بارزا بين الحق والباطل، والشرك والإيمان، وأصحاب الجنة من أصحاب النار، وكانت قريش جيَّشت جيوشها وخيولها للقضاء على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بعد أن تعذر عليهم ذلك في مكة عقر دارهم، جاؤوا وقد حسموا انتصارهم _ كما ظنوا _ بتفوقهم العسكري وعدتهم الوفيرة، وكانوا لا يستريبون في الانتصار، وكان تقدير الله وحسابه شيئاً آخر .

وكانت الجزيرة برمتها تنتظر ما تسفر عنه معركة بدر بين النبي صلى الله عليه وسلم وقومه،

وكان الأنصار–كما بايعوا–موفين بيعتهم، فقاتلوا قتال الشجعان والضياغمِ الضواري عند ما التحم الفريقان، وكان عددهم

واحدا وثلاثين ومائتين، والباقي من المهاجرين، وكان صلى الله عليه وسلم قد استشارهم قبل الغزوة ليذكرهم بالعهد الذي بينه وبينهم، فقال له سعد بن معاذ : " فامض يا رسول الله لما أردت ونحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضتَه، لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقربه عينك، فسربنا على بركة الله، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول سعد، ونشّطه ذلك، ثم قال :" سيروا، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم " (١)

وكانت النتيجة انتصار المسلمين، وانهزام المشركين، واهتزت مكة وما حولها من أطراف الجزيرة لهذا الجلل الجسيم، الذي أبان لهم عن خطأ التخمينات المادية، التي بنوا عليها حسم المعركة لصالحهم .

وبهذا الانتصار الساحق على المشركين في بدر – رغم قلة عدد المسلمين وعدتهم بالنسبة لعدد وعُدة المشركين – أخذت رسالة الإسلام منعرجا آخر، يتجلى في أن الجزيرة وما يليها من بلاد الروم وفارس، بدأت تفكر بجد في شأن الرسالة الجديدة، وكان الكل على حذر، يحسب خطواته وكلماته، ولم يعد هناك مجال لنزف

(١) أخرجه ابن إسحاق – سيرة ابن هشام –٦١٥/١/من حديث ابن عباس بسند حسن، ولبعضه شاهد عن أنس عند مسلم في الجهاد –١٤٠٤/٣/

الكلام والعُنْجُهِيَّةِ التي كان الكفار يطلقونها على عواهنها، فقد جد الجد، وحان حَيْنُ كل من يقف في سبيل كلمة الحق .

ثم بعد بدر، بدأت دائرة المبصرين الداخلين في دين الله تتسع، وأسرع كل من ليس له غرض شخصي أو قبلي إلى دخول في رحاب النبوة الخاتمة، وأصبحت المدينة مركزاً له ثقلُه وكلمتُه ومكانتُه بين مراكز القرارات الدولية آنذاك، واضطر المنافقون من العرب واليهود إلى الدخول في الدين ظاهرا، لحماية أنفسهم ومصالحهم، والتجسسِ على المسلمين لصالح مشركي قريش الذين ما زالوا يقاومون ما لا يقاوَم، ويسعون في كسر شوكة المسلمين الذين يشتد ساعدهم كل يوم، ولذلك ألبوا ما استطاعوا من الفلول لغزوة أحد، وكان لهم فيها شفاء من بعض ما أصيبوا به يوم بدر بسبب أخطاء الرماة الذين تركوا مواقعهم من فوق الجبل، لكنهم لم يصلوا لمأربهم، الحقيقي، وهو قتل النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت أحد نصرا للمسلمين في بدايتها ونهايتها، وكانت جولة في وسطها للمشركين بقيادة أبي سفيان، لكنها انتهت بعدم بلوغ المأمول.

ومرت الأيام، فجمعت قريش من جديد– بمؤازرة المنافقين واليهود – ما أطاقوا من المتطوعة للقتال، للهجوم على المدينة، واستئصال شأفة من فيها، فجاؤوا في السنة الرابعة أو الخامسة، بقَضِّهم وقضيضهم، وحمى الله المسلمين من غدرهم بالخندق الذي حفروه، وبالريح التي سلطها الله عليهم، فقفلوا بقيادة أبي سفيان لا يألون على شيء، طالبين النجاة بجلودهم، وأصبح المسلمون يوسعون

دائـرتهم، وأصـبحت القبائـل العربيـة، تـدين واحـدة بعـد الأخـرى بـالنور الجديد .

و – غزوة الحديبية، وتحقيقُ عالمية الدعوة .

في هـذه الغـزوة – وبعيـد الامتحـان العـسير، الـذي مـر منـه المـسلمون، وكـان طمـع المـشركين فيـه واضـحا، وطمـوحهم جامحـا لاجتثـاث دعـوة الإسـلام – بـدأت الـدعوة منعطفـا آخـر، يتجلـى في خروجهـا مـن قطـر الجزيـرة إلى الـدول المجـاورة، وكـان الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم في هـذه الغـزوة لم يخـرج لقتـال أحـد، وإنمـا خـرج هـو وأصـحابه ليعتمـروا، ولمـا وصـل الحديبيـة وجـد قريـشاً مـصممة علـى منعـه مـن الـدخول إلى مكـة . وكـان قـد أحـرم صـلى الله عليـه وسـلم هـو وأصـحابه، وقلـدوا هـديهم، وفـاوض أهـل مكـة في الـدخول، وأسـفرت المفاوضـات علـى أن لا يـدخل مكـة هـذا العـام . علـى أن يعـود إليهـا في العـام المقبـل، وكتـب بينـه وبيـنهم وثيقـة صـلح علـى أن تـضع الحـرب أوزارهـا بينـه وبيـنهم عـشر سـنين، وأن مـن أراد أن يـدخل في حلـف الـنبي صـلى الله عليـه وسـلم دخـل فيـه، ومـن أراد أن يـدخل في حلـف قـريش دخـل فيــه، وشــرطوا فيهــا شــروطا أخــر، هــي في ظاهرهــا مجحفــة بحقــوق المـسلمين [1] لكنهـا في باطنهـا، كانـت نـصرا وفتحـا بكـل المقـاييس، ولذا نزلت سورة الفتح .

عنـد قفولـه صـلى الله عليـه وسـلم مـن الحديبيـة، وقرأهـا علـى

---

(١) البخاري في التفسير - ٤٤٦/٨/ح/٤٨٣٣/٤٨٣٤/

الناس [1] .

وكان من نتائج هذا الصلح، أن أمن الناس على دمائهم وأموالهم، وفي أسفارهم وتنقلهم، فتهيأت بذلك فرصة اللقاء بين الناس، وسماعِ بعضهم من بعض، والنظرِ بعمق في هذا الدين القديم الجديد، وشاء الله عز وجل أن تكون قريش هي أولَ من نقض هذا العهد في السنة الثامنة، حينما باغت حلفاؤهم بنو بكر خزاعةَ حليفة النبي صلى الله عليه وسلم على ماء يقال له : الوتير فقتلوهم، وأخذتهم قريش فجاءت خزاعة للنبي صلى الله عليه وسلم تستجير به، وتذكره بما فعلت بهم بنو بكر غدرا واغتيالا، فكان ذلك سببَ فتح مكة، وكانت مدة ما بين الحديبية، وفتح مكة : سنتين إلا شهرين، وكان عدد الصحابة في الحديبية – كما قال جابر – ألفا وأربعمائة، أو ألفا وخمسمائة[2] وكان عددهم في فتح مكة، عشرةَ آلاف مقاتل، فقد تضاعفوا ثماني مرات ونيف خلال هذه المدة الوجيزة، وهذا العدد لم يُسْلِم منذ بداية الدعوة إلى الحديبية مثله، ومدتها تسع عشرة سنة، فكان ذلك فتحا بكل ما للكلمة من معنى .

وبعد هذه الغزوة، بدأت الرسالة النبوية، تأخذ أبعادا عالميةأخرى فقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الدول المجاورة، ودعاهم إلى الله عزوجل، وإلى الدخول في الإسلام،فمنهم من استجاب، ومنهم من أعرض فشقي في الدنيا والآخرة

(٢) البخاري كتاب الصلح –٥/٣٥٧/ح/٢٦٩٨/٢٦٩٩/

(١) البخاري في التفسير - ٨/٤٤٦/ح/٤٨٣٣/٤٨٣٤/

ز– رسائله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك

١. رسالته صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم

كان من سنته صلى الله عليه وسلم المتواترة عنه أنه لا يبدأ أحداً بقتال، إلا إذا بلَّغه رسالة ربه، ودعاه، وبين له، التزاماً بأمر الله، ورحمة بخلق الله، ولهذا كاتب هؤلاء الملوك، وشرح لهم أمّره الذي يعرفونه من خلال كتبهم، ودعاهم إلى الله، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم إيذانا بتطبيق قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض ﴾ [الأعراف ١٥٨]

هذا وقد اختار رسلا بخصائص خاصة، كل واحد يليق بإنجاز المهمة التي وكلت إليه بنجاح، وكانوا كما توسم فيهم نبي الله صلى الله عليه وسلم، أمناء نزهاء، شجعان، نافذين لما أمروا به ولو كان في طريقه سدود وحصون مشيدة، فمضاء العزيمة، لا يغلبه كثافة الحواجز، وشهوق الحصون .

ورسالة هرقل هذه، أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الحديبية، كما صرح بذلك أبو سفيان

حينما استفسره هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم للتأكد من أمره، وكان الرسول الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة، هو دِحية بن خليفة الكلبي، فدفعها إلى عظيم بصري، ودفعه عظيم بصرى إلى هرقل، ونصها : " من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك

بدِعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [آل عمران ٦٤] (١)

وقبل قراءة هرقل لنص هذه الرسالة، استدعى أبا سفيان – وكان آنذاك بالشام – فسأله أسئلة عديدة عن النبي صلى الله عليه وسلم – وتيقن منها أنه النبي الذي يجده في كتبهم، وقال له : قد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو كنت أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

ثم دعا قومه بعد ما جمعهم في دسكرة له، لمبايعة النبي صلى الله عليه وسلم فأبوا عليه،

فضن اللعين بملكه، فلم يسلم مخافة من قومه، وقاتل المسلمين في غزوة مؤتة وجيَّش لهم مائة ألف من الروم (٢) ومات على كفره . وفي رواية أنه كتب من تبوك إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه مسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " كذب، بل هو على نصرانيته " (٣)

وفي مرسل بكر بن عبد الله المزني أنه كتب للنبي صلى الله

---

(١) البخاري في الوحي –١/من حديث ابن عباس .

(١) مغازي ابن إسحاق – كما في سيرة ابن هشام ٣٧٥/٢

(٢) مسند أحمد كماعزاه إليه الحافظ في الفتح _

عليه وسلم أنه مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " كذب عدو الله، وليس بمسلم " (١)

ويهمنا من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم له، أنه بدأ به نطاق الدعوة يتسع عالميا، ويمتد إلى ما وراء الجزيرة، وذلك " تعبير عملي عن عالمية الرسالة الإسلامية تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي، مثل قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء –١٠٧] مما يوضح خطأ النظرة القائلة بأنّ التدرّج في نطاق الدعوة من الإقليمة إلى العالمية كان تبعاً لاتساع النفوذ السياسي للرسول صلى الله عليه وسلم، فإن سمة العالمية تقررت، والمسلمون مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس " (٢)

٢. رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى، ملك الفرس

وهذه الرسالة بعثها النبي صلى الله عليه مع رسوله عبد الله بن حذافة السهمي، وأمره أن يدفعها لعظيم البحرين، المنذرِ بن ساوى العبدي، ليدفعها إلى كسرى، فلما وصله كتاب النبي صلى الله عليه وسلم مزقه، فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق (٣)

وكان الأمر كذلك، فما قام لدولة الفرس بعد ذلك قائمةٌ .

---

(٣) كتاب الأموال لأبي عبيد - ٢٣٨/٢٣٧/ بسند صحيح

(١) السيرة النبوية الصحيحة _ د – أكرم ضياء العمري –٤٥٥/٢/ ٤٥٦/

(٢) البخاري في المغازي –٧٣٢/٧/ حديث /٤٤٢٤/ من حديث ابن عباس

وكأنّ الكافر غرته سطوته وغطرسته، وأسرع لتمزيق الكتاب بعد قراءته وقيام الحجة عليه به، أَنفةً واستكبارا، فأذهب الله ملكه بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم بتمزيقها كما مزق كتابه، جزاءً وفاقا، فلم يلبث إلا قليلا، حتى انقلب عليه ابنه شيرويه، وقتله، وأخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بابَوَيْه بأن كسرى قد قتل قبل علمه بذلك، فلما أَخبر باذان – عامل كسرى على اليمن بذلك – أسلم، وأسلم جملةٌ من أبناء فارس ممن كان معه باليمن [1].

وبهذا بدأت حواجزُ الدعوة وعقباتها، تزول شيئا فشيئا خارج نطاق العرب، وأصبحت قضيةً عالمية، سمع بها الصغير والكبير، والقاصي والداني، كما أصبحت الشغلَ الشاغل للناس :ساستِهم، وكبرائهم ووضعائهم، وأصبحت معاقلُ العبودية، وإذلالُ الإنسان، وتسخيره كالحيوان، يتزعزع سلطانها، وتتأرجح أركانها .

٣- رسالة النبي صلى الله عليه وسلم للنجاشي ملك الحبشة

والنجاشي الذي كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم ذاك الذي نزل عنده الصحابة في هجرتهم للحبشة، فأكرم مثواهم، وأجارهم من أعدائهم، فقد أسلم بعد هذه الرسالة، وأرسل للنبي صلى الله عليه وسلم بإسلامه [2] وتوفي في السنة التاسعة كما ذكر الأكثرون، وقيل قبل فتح مكة، والرسالةُ التي أرسلها له رسول الله

(٣) انظر تاريخ الأمم والملوك – للطبري ٢٤٨/٣/٢٤٩/

(١) انظر نص رسالته للنبي صلى الله عليه وسلم عند الطبري في تاريخ - ٦٥٢/٢/ والبيهقي في الدلائل /٣١٠/٢/

صلى الله عليه وسلم وأجابه عنها، مدارها على ابن إسحاق موقوفا عليه، فلم يصح إسنادها [١] كما صح إسناد رسالة قيصر، ولكن من المؤكَّد، أن مضمونها هو الدعوة للإسلام، وأما حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم "كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه صلى الله عليه وسلم [٢]

فهو محمول على أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب كتابا آخر لنجاشي آخر، تولى الحكم بالحبشة بعد موت النجاشي المسلم، كما ذكر الحافظ في الفتح [٣] وهذا معقول على مذهب من يرى أن الإرسال إلى الملوك، كان مرة ثانية بعد غزوة تبوك، ولكن يعكر عليه أنه في مرسل ابن المسيب أنه صلى الله عليه وسلم " كتب إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي كتابا واحدا " [٤]

لكن هذا المرسل شاذ، لأن عبد الرحمان بن حرملة، راويه عن سعيد ابن المسيب، كان يلقن، وكان سيئ الحفظ، وقد انفرد بهذا اللفظ، ويبعد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم رسالة واحدة بلفظها وحروفها، فالمضمون وإن كان واحدا، إلا أنه يراعي] في كل مخاطب مالا يراعي في الآخر، فيزيد وينقص .

(٢) انظر نص الرسالة عند ابن إسحاق، القطعة المغربية ص ٢١٠/وعنه الحاكم –٢/٦٢٣/

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد –٣/١٣٩٧/ حديث ١٧٧٤/

(١) انظر الفتح : كتاب المغازي، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر - ٧/ ٧٣٥

(٢) أبو عبيد في الأموال – ص ٢٧/بسند لا بأس به

٤– رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ملك مصر

هذه الرسالة، بعثها النبي صلى الله عليه وسلم مع حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، ونصُّ الرسالة قد ساقه ابن إسحاق، وعنه البيهقي في الدلائل، وقد تركنانقله لأنه لا يصح إسناده .[1]

هذه جملة الكتب التي سجلت كتب السيرة أنها مرسلة خارج جزيرة العرب، وقولُه في حديث أنس السابق: " وإلى كل جبار " يقتضي أنه أرسل لأكثر من هذا العدد.

ح. رسائله صلى الله عليه وسلم لرؤساء القبائل في الجزيرة

كان رؤساء بعض القبائل، لهم تأثير خاص على مرؤوسيهم، فإن أسلموا فأتباعهم سيقْفون أثرهم بلا تردد، وكان بعضهم تابعا للدولة الرومانية وبعضهم مستقلا بسلطانه.

١ . رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبي شمر الغساني

كان الحارث عاملا على دمشق – عاصمة الغساسنة – لقيصر الروم، وأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب الأسدي برسالة يدعوه فيها إلى الله،فلما قرأها رمى بها، وقال :" من ينتزع مني ملكي "؟ ومات عام الفتح كافرا [2]

ونص الرسالة التي كتب له بها، لم نوردها لأن إسنادها لا يصح، لكن هذا الإرسال لم يذهب سدى، فقد أسلم حاجبُه وآمن

(٣) انظر ابن هشام –٤/٢١٦/ والبيهقي –٤/٣٩٥/

(١) المصدر نفسه – ١/٢٦١/ بإساد ضعيف مداره على الواقدي

بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأرسل إليه بالسلام مع شجاع بن وهب .

٢- رسالته صلى الله عليه وسلم إلى هوذة بن خليفة الحنفي .

كان هوذة على اليمامة، وبعث له النبي صلى الله عليه وسلم برسالة مع سليط بن عمرو العامري فاستحسن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يسلم، وأجاز سليطا بجائزة، وكساه أثوابا [1]

٣ – رسالته صلى الله عليه وسلم إلى جَيْفَر، وعبدٍ، ابني الجلندي من الأزد .

وهذان كانا ملكي عمان، أرسل إليهما النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الله برسالة مع عمروبن العاص، وأسلما معا " [2]

وراسل أيضا المنذر بن ساوى بالبحرين، وإلى بني معاوية من كندة، وإلى جبلة بن الأيهم ملك غسان، وإلى أسقف بني الحارث، وسواهم ممن ذكرهم ابن سعد وغيره .

ومدار المراسلات، على عالمية الرسالة المحمدية، والدخول في دين الله طوعا، والانضمام لموكب الرحمان، والتنصل من حزب الشيطان، ولذلك تسارع الناس للدخول في دين الله أفواجا، وكانت الوفود التي وفدت على رسول الله سنة تسع للدخول في الإسلام من

(٢) طبقات ابن سعد –١/٢٦٢/.

(١) المصدر نفسه – ١/٢٦٣/ وانظرأيضا نصب الراية _٤/ ٤٢٣

أطراف الجزيرة، بلغت واحدا وسبعين وفدا، حسب ما ذكره ابن سعد

ط- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بمكة المكرمة

إذا كانت المنظمات الدولية، وجمعيات حقوق الإنسان، تتباهى بأن البشرية تقدمت في مجال إرساء قوانين حقوق الإنسان التي صادقت عليها كافة الدول، وأخذت طريقها للتطبيق العملي، وزَرِمَ بذلك عهدُ الاستبداد، وانعتق الناس من أفانين القهر والاستعباد، فإننا نوقن إيقانا لا مجال للريب فيه أن هؤلاء جميعا، قد سبقهم محمد صلى الله عليه وسلم بقرون كثيرة في هذا المضمار، فهو أول من عقد حلف التآخي بين الغرباء في دار الغربة، في مواخاته بين المهاجرين والأنصار، وهو أول من نظم العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب في الوثيقة التي كتبها بينهم، وهو أول من آذن بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان في فتح مكة المكرمة في السنة الثامنة من الهجرة، وفي حجة الوداع من السنة العاشرة.

وما أعلنه صلى الله عليه وسلم في آلاف الناس من الحقوق الإنسانية، لا ترقى القوانين الحالية، إلى مستواه، فلو طبق تطبيقا سليما، لما احتاجت معه البشرية لشيء آخر، ولما انتظرت قرونا تترى، حتى جادت أفكار المنظرين بما قدموا لها من قوانين تحكم علاقتها العامة والخاصة، ولا يفهم من كلامنا هذا أننا نستهين بما توصلت إليه المنظمات الدولية، – وطبق جزء منها فعلا في الدول الغربية – لأن هذا غير وارد عندنا، إذ كل ما أسهم في انعتاق البشر من استعباد أخيه البشر مما لم يخالف شرعا، فهو مراد شرعا، ودينا ونحلة،

وإنما نريد أن نبين للمنبهرين بالإنجاز الدولي في هذا المجال، أن هذا المنجز في مجال حقوق الإنسان، ليس جديدا على حضارة الإسلام، ووحيه، وتشريعه، وما فيها من تلك الحقوق، أرقى مما توصلت إليه البشرية مؤخرا، ذلك أنه شامل يأخذ الإنسان ببعديْه الدنيوي والآخروي، ويراعي في الإنسان جسده وروحه معا، وعلاقته بربه، وعلاقته بالناس، وعلاقته بالأكوان بخلاف القوانين المُرْساة مؤخرا، المتعارفِ عليها باسم المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، فإنها لم تأخذ الإنسان ببعديه ولم تتناوله إلا في شقه البهيمي الجسماني، وأما شقه الثاني، وهو البعد الروحي، فإنها أهملته إهمالا مريعا، وغيبته من حساباتها تغييبا مفزعا، فكأن الإنسان، ما هو إلا حيوان يحتاج للعلف، لذا وَضعت له قيودا صارمة تحفظ له جسمه وكيانه المادي، دون مراعاة شيء آخر.

ونحن هنا لسنا في مجال تقويم تلك المواثيق ولا مناقشها - كما أننا لا ننكر ما فيها من مصلحة الإنسان في جملتها - <u>وإنما نريد إثبات أن مكة المكرمة، هي أول مدينة على وجه الأرض، أُعلن منها ميلاد وثيقة حقوق الإنسان، منذ أربعة عشر قرنا</u>، بكل ما في ذلك من مضمون، ومغزى، وغاية .

وبسوق هذه الوثيقة - وقبلها وثائق مبرمة في المدينة النبوية - سيتضح لكثير ممن ليسوا بمتخصصين في التاريخ الإسلامي أن ما نقوله صحيح، وبمقارنتها بما هو مدون دوليا، سينجلي لهم الفرق، وآنئذ، نَكِلُ إليهم الإفصاح عن الحقيقة والجهر بها، وإعلانها صرخة

مدوية في العالمين حتى يهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وتكون الحجة قدقامت بذلك على المعاندين الذين لايرون لهذا الدين فضيلة، ولا لأهله مزية .

_ إذا قالت حذام فصدقوها ❖❖❖❖ فإن القول ما قالت حذام _

أ – خطبة فتح مكة

١- عن ابن عمر_رضي الله عنهما أن رسول الله صلى عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة فقال : " يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة [(١)] الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان : بَر، تقي، كريم على الله، وفاجر، شقي، هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب قال الله : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر، وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليمٌ خبير " [الحجرات _ ١٣] [(٢)]

---

(١) أي تفاخرها

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير –٣٨٩/٥/ وقال : غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه، وعبد الله بن جعفر يضعف، ضعفه يحيى ابن معين، وغيره .. وفي الباب عن أبي هريرة وابن عباس " اهـ قلت : وبهذين الشاهدين يصح الحديث، فأما حديث أبي هريرة فهو صحيح، وأما حديث ابن عباس، فأخرجه ابن حبان، حديث ١٩٤٣/ الموارد، والبيهقي في الشعب –٢٨٦/٤/ والطبراني في الكبير حديث –١١٨٦١/ ١١٨٦٣/ =

٢- وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم الفتح بمكة، فكبر ثلاثا ثم قال: لا إله إلا الله، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، أَلاَ إن كل مأثرة كانت في الجاهلية تذكَر وتدَّعى من دم أو مال، تحت قدمي، إلا ما كان من سقاية الحاج، وسدانة البيت، ألا إن دية الخطأ شبه العمد - ما كان بالسوط والعصا - مائة من الإبل، منها أربعون، في بطونها أولادُها " (١)

٣- وعنه أيضا قال: " لما فُتحتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، قال: كفوا السلاح - إلا خزاعة عن بني بكر، فأذن لهم حتى صلوا العصر، ثم قال: كفوا السلاح - فلقي من الغد رجل من خزاعة رجلا من بني بكر بالمزدلفة، فقتله، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام خطيبا، فقال: " إن أعدى الناس على الله، من عدا في الحرم، ومن قتل غير قاتله، ومن قتل بذُحول (٢) الجاهلية، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله: إن ابني فلانا عاهرت (٣) بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا دِعْوة (٤) في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولدُ للفراش، وللعاهر الأَثْلَب، قيل: يا

=

بإسناد صحيح، وليس فيهما أنه قال ذلك يوم فتح مكة.

(٣) أخرجه أبو داود في الديات، ح، ٤٥٧١/ وابن ماجه - ٢٦٢٧/ وابن حبان /٦٠١/٧/ وابن الجارود -٧٧٣/بسند صحيح)

(١) جمع ذَحْل، وهو الحقد والثأر

(٢) أي زنيت

(٣) بكسر الدال، وهو ادعاء الإنسان ولدا لم يولد على فراشه.

رسول الله، وما الأثلب ؟ قال: الحَجَر، قال :وفي الأصابع عشر عشر، وفي المواضح خمس خمس، ولا صلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس، ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، ولاتنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها، وأوفوا بحلف الجاهلية، فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا تحدثوا حلفا في الإسلام [والمؤمنون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم، أَلاَ لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده " (١)

٤– وعن جابرقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو بمكة عام الفتح _ يقول:" إن الله ورسوله حرم بيع الخمر، والميتة، والخنزير، والأصنام، فقيل : يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس، فقال : لا، هو حرام، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك، قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها، جملوه ثم باعوه، فأكلوا ثمنه" (٢)

٢– خطبة حجة الوداع بعرفة

وهي أيضا إعلان عالمي لحقوق الإنسان، متمم ومكمل لما

---

(٤) أخرجه أحمد واللفظ له - ٢٠٧/٢/ وأبو داود مختصرا، حديث ٢٤٧٤/ وابن عبد البر في التمهيد - ١٨٢/٨/ والفاكهاني في أخبار مكة /٢١٩/٥/ من طريق عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، وإسناده حسن، وله شواهد عديدة في الجملة تشهد له .

(١) أخرجه البخاري في البيوع /٤٩٥/٤/ ومسلم في المساقاة –١٢٠٧/٣/

أُعلن في فتح مكة، وقد كانت هذه الخطبة بعرفة، ، وأخرى بمنى يوم النحر، وهو من الحرم المكي، فصح لنا بذلك ادعاءُ أن الحقوق العالمية الأولى، للإنسان، كانت مكية المنطلق، نبوية البلاغ، غالية المقاصد، نبيلة الأهداف عالمية الخطاب .

عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم أتى بطن الوادي في عرفة، فخطب الناس وقال: " إن دماءكم، وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهر كم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضعه من دمائنا، دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضَعا في بني ليث فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، [لكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون] وأول رباً أضَعُ، ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله [ألا لا يجنى جانٍ إلا على نفسه، ولا يجنى والد على ولده، ولا ولد على والده، ألا إن المسلم أخو المسلم، فليس يحل لمسلم من أخيه شيء إلا ما أحل من نفسه ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحقرون من أعمالكم فيرضى به]فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح [فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا] ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت

فيكم، مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتابَ الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون " ؟ : قالوا : نشهد إنك قد بلغت وأديت، ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس : "اللهم أشهد، اللهم أشهد " ثلاث مرات (١).

٣- خطبة حجة الوداع بمنى

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر، فقال :" أيها الناس أي يوم هذا ؟ قالوا يوم حرام، قال: فأي بلدهذا؟ قالوا : بلد حرام، قال : فأي شهر هذا ؟ قالوا : شهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا [إلى يوم تلقون ربكم] ثم رفع رأسه فقال : اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت ؟ [قالوا : نعم] قال : فليبلغ الشاهد الغائب [فإنه رب مبلغ يبلغه من هو أوعى له] لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " (٢)

(١) أخرجه مسلم في الحج -٢/٨٩٠/ والترمذي والزيادة الأولى والثانية له -٥/٢٧٣/٢٧٤/ ٤٦٧/٣/ و ابن ماجه /٥٩٤/١/والزيادة الثالثة له كلهم من حديث عمر بن الأحوص. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(١) البخاري في الحج -٣/٦٧٠/ وفي الفتن - ٢٩/١٣/ والزيادة الأولى والثانية والثالثة والرابعة له من حديث أبي بكرة

ي- بعض ما تضمنه هذا الإعلان من مبادئ في حقوق الإنسان

إذا كان النصْف يقتضي من المخالف أن يقربالحقائق التاريخية، فإن ما سقناه من النصوص، يكفي لأثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من أعلن حقوق الإنسان - كما يسمى في اللغة المعاصرة - والنصوصُ التي أوردنا، هي عبارة عن مواثيق ودساتير قانونية، عامة، يحتاج بسطها وشرحها إلى مجلدات، لما تتضمنه من حقوق وواجبات .

وأول حق أعلنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته الخالدة في فتح مكة، هو سواسية الناس في البشرية، وفي انتسابهم لأب واحد : " كلكم لآدم، وآدم من تراب " ومن ثم، فلا تفاضل بالأحساب، والأنساب، ولا بالثرى والسلطان، ولا باللون والبلدة، وإنما التفاضل يقع بالعمل، والكسب، وليس هناك إلا رجلان : برٌّ، تقي - يرفعه عمله - وفاجر شقي - يرديه عمله - فإدخالُ التفاضل باللون - كما يفعل الغربيون مع الأفارقة الزنوج - أو بالأحساب، والأنساب كما يفعله الأعراب، إنما هو من نخوة الجاهلية وكبريائها .

هذه الحقيقة التي أعلنها خير البشرية منذ أربعة عشر قرنا، هي التي ناضلت البشرية من أجلها آمادا طويلة، ولم تأخذ طريقها للتطبيق عندهم إلا في القرون المتأخرة، مع ما يشوب تلك السواسية من سوء التطبيق، مع العلم أن الزنوج في أمريكا، ما زالوا يمارس التمييز العنصري ضدهم إلى الآن، لم يصلوا بعد إلى أن يتمتعوا بهذه السواسية وعدم التمييز الذي أعلنه نبي الإسلام منذ دهور طويلة، وهي

التي يكافح الأفارقة في جنوب إفريقيا عليها ثلاثة قرون، ولم يصلوا لتحقيق شيء من إنسانيتهم إلا مؤخرا، بعد حروب مريرة، حصدت أرواح الآلاف منهم من لدن العنصريين البريطانيين الذي استعمروهم .

وثان حق في هذا الإعلان، إقرار كل فضيلة كانت البشرية متمسكة بها، وإبطال كل رذيلة كانت من مآثر الجاهلية، ويدخل في هذا وذاك مالا يعد من الصور، فهو قانون عام، يسري على كل مجتمع، وعلى كل زمان ومكان، ولذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : " ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية . . . .

ولم تستطع البشرية، وخاصة غير المسلمين – أن يتخلوا عن كثير من عادات الجاهلية وأوضاعها التي أعلن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه وضعها تحت قدمه .

وثالث حق في هذا الإعلان : الحق المتعلق بأرواح الناس وإزهاقها خطأ أو عمدا، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مقدار الدية في قتل الخطأ، وبين في أحاديث أخرى أن العمد فيه القصاص، إلا إذا تنازل عنه أولياؤه بالعفو أو قبول الدية .

وهذا المبدأ الذي يحفظ على الناس أرواحهم – وحفظها من الضروريات التي اتفقت عليها جميع الشرائع – لم ترق المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، أن تبلور فيه رؤية واضحة وصارمة، فما زال القاتل عمدا يعلم أنه بمنجاة عن الاقتصاص منه، وأن غاية ما ينتظره، هو

السجن مدة، يزداد فيها ضراوة، وشرها إلى الدماء، فإذا خرج من سجنه، عاد إلى فعله، وأثخن في القتل وما دام هو يلقى في سجنه معاملة الكرام، لا معاملة اللئام، فما الذي يردعه عن غيه، ويحول بينه وبين الجريمة مرة أخرى ؟

إن تساهل المواثيق الدولية في هذا الجانب، أدى إلى استهانة الإنسان بأخيه الإنسان، فيقتله لأتفه الأسباب، والإحصائياتُ التي تتابع القتلى إما بالسلاح، وإما بالحوادث، تنذر بشر عظيم وما ذاك إلا أن العقوبة الموضوعة لا تحول دون هذه الجرائم، والعقوبةُ المعلنة من نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم من القصاص في القتل العمد، والدية في قتل الخطأ، هي وحدها الذي تستطيع، إيقاف مهزلة إتلاف أرواح الآف الأبرياء، دون جرم ارتكبوه .

ثم إن تحريف هذه المواثيق الدولية – على علاتها – كما فعلت أمريكا التي استثنت جنودها من المثول أمام محاكم جرائم حرب الدولية – ليزيد الأزمة تفاقما وحدة .

ورابع حق في هذا الإعلان : احترام الأماكن المقدسة، وتلافي القتل فيها، ويقاس عليه كل ما يخل بقدسيتها وحرمتها، من عدم تهديمها، أو مهاجمتها بالطائرات، أو الصواريخ العابرة للقارات، كما يجري الآن في الأماكن المقدسة في فلسطين، التي لم يترك الصهاينة مكانا منها إلا ودنسوه .

وخامس حق في هذا الإعلان : الجريمةُ مقصورة على

مرتكبها، فلا يؤخذ بها من سواه، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، فقد كان الرجل إذا قتل من قبيلة شهيرة، قتلوا به جماعة من قبيلة القاتل ممن ليس لهم علاقة بجريمته، وقد لا يعلمون بها، وكما يجري الآن في الجاهلية المعاصرة، فدول بأكملها، وشعوب بأممها، تغزَى، وتقتل، وتشرد، وتهدَّم عليها بيوتها بأفتك الأسلحة، وأشدها تدميرا، لخطأ شخص، أو أشخاص معينين، إنها شعوب بأكملها تعاقب بفعل كبرائها أو أمرائها، كما يجري في الشيشان، والفلبين، والعراق، وكوريا الشمالية، وفي ليبيا سابقا، فهذه الشعوب وغيرها، عوقبت بغير ما جنت، والله تعالى يقول:" ولا تزرُ وازرة وزر أخرى " [الإسراء ١٥]

<u>وسادس حق في هذا الإعلان</u> : الحفاظ على الذرية والصبية من الضياع، وذلك بتحريم الزنا، واعتباره من الموبقات المحرمة – كما في الشرع الإسلامي – وأما ما في المواثيق الدولية، فإنه لا يزيد لأمر الزنا إلا انتشارا، وأمرِ اللقطاء إلا استفحالا، وينذر تكاثرُهم بشر مستطير، يصيب شررُه الخاص والعام، فقوله صلى الله عليه وسلم " الولد للفراش، وللعاهر الأثلب " قاعدة مؤسِّسة لحفظ الأنساب الذي هو من الضروريات الخمس، وحفظ الناشئة من التشرد والضياع الذي تعانيه اليوم أكثر من أي وقت مضى.

<u>وسابع حق في هذا الإعلان</u>: الوفاء لذي العهد في عهده، بأن تضمن له جميع حقوقه، من لدن معاهِده، بالشروط المنصوص عليها من الجهتين معا، وما زال المعاهدون، والأجراء، والعمال، في بعض الدول، يشكون الاضطهاد، وهضم حقوقهم، وتكليفهم فوق طاقتهم

والنظر إليهم نظرة دونية، ويشعرون بحيف في حقوقهم في وقت تَعتبر فيه الدولُ الوفاءَ بالالتزامات الدولية، من أرقى ما وصل إليه الفكر الحديث .

وثامن حق في هذا الإعلان : حقوق الأسرة، كحق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها التي أشار إليها حديث حجة الوداع، فالمواثيق الدولية، لم تعن به كعناية الإسلام، مع أن العلاقة الأسرية، هي اللبنة الأولى لبناء مجتمع سليم، فأي خلل فيها، فإنه يسري للمجتمع كله

وتاسع حق في هذا الإعلان : تجريم كل من يتعاطى ويتاجر فيما لا ينفع الإنسان، ويعود عليه بالوبال، سواء تعلق بطعامه أو شرابه، أو لباسه أو ترفيهه، كالخمر، والميتة والخزير، والأصنام، فهذه الأمور، لم يولها القانون الدولي لحقوق الإنسان أي اهتمام، فالخمر – بانتشارها وتشجيعها – خربت بيوتا، وأزهقت أرواحا، وأفلست أقواما، وبناءُ المراقص، والملاهي الليلية، زادت من حدة الفجور، وأوقدت نيران الجريمة، ووسعت مجاريها، وأصبح المجتمع كله يؤدي ثمن استباحة هذه المحرمات، التي تعتبرها القوانين قضايا شخصية، دون النظر فيما يترتب عليها من المفاسد التي تهدد المجتمع كله بالإفلاس، والانقراض .

هذه بعض القضايا المستخلصة من هذا الإعلان، باقتضاب

وإيجاز، وإلا فهو غني بالأحكام، التي يجد القلم فيها مساغا للبسط والاستنباط، لكن ليس هذا موضوع هذا البحث .

وينبغي التذكير بأنه في السنة التاسعة سنة الوفود، وفي حجة الوداع، اتسع نطاق الدعوة، وألقت بظلالها في الجزيرة وخارجها، وحج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، ومعه أكثر من مائة ألف، ممن اقتدى به في حجّه ليأخذ عنه، وكانت هذه الحجة حافلة بالأحكام والأسس الشرعية المبثوثة في خطبه السابقة وفي فتاواه ، وفي يوم عرفة من هذه الحجّة نزل قوله تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا "[المائدة -٣] وبعد انتقاله صلى الله عليه وسلم للرفيق الأعلى، واصل خلفاؤه فتح البلدان لنشر الدين فيها ، ولم يمض قرن من الزمن حتى دخل الإسلام للقارات المعروفة آنذاك، من حدود الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا ، وبذلك تحقق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من حديث تميم الداري في قوله : " ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز وذل ذليل عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل به الكفر " (١)

***

(١) أخرجه مسلم في الإمارة -١٥٢٣/٣/

خاتمة في نتائج هذا البحث

يمكن تلخيص ما تضمنه هذا الموضوع فيما يلي:

١- إدراك قيمة نبوّتة صلى اللّه عليه وسلم في العالمين، وأنه كلها عدل ورحمة .

٢- إنقاذ المجتمع المكي خاصة، والعربي والعالمي عامة مما يتخبط فيه من الوثنية والانحدار الخلقي، والفكر الضيق .

٣ - تدوين أحداث التاريخ بدقة وأمانة، كان الفضل فيه للنبي صلى اللّه عليه وسلم، فلولا سيرته وشرعه، وحياته الخاصة والعامة الباعثة على ذلك، لبقيت البشرية مغفلة هذا الجانب الأهم من حياتها .

٤- السيرة المعروفة من سير الأنبياء بالتفصيل الدقيق لكل جزئية من جزئياتها الجلية والخفية - من بدايتها إلى نهايتها، دون إغفال أي حلقة من حلقاتها - هي سيرة نبينا صلى اللّه عليه وسلم، وما عداه من الأنبياء فنعرف عن سيرهم أمورا مجملة، وبعض تفاصيل من جزئيات وردت في القرآن الكريم والسيرة النبوية، وما عدا ذلك مما ملئت به كتب أهل الكتاب، فلا يجزم بصحته ولا يكاد يكون كذلك .

٥- عرفت الرسالة المحمدية التحول نحو التبليغ العالمي في ثلاث مراحل: الأولى في هجرة النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى المدينة، والثانية بعد غزو الحديبية، والثالثة بعد فتح مكة .

٦ – الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، كان بكة المكرمة وما حولها، وهذا الإعلان قد أسس للمبادئ العامة الخالدة، التي تحكم حياة الفرد وشخصه، وضرورياته، وحاجياته، وكرامته الآدمية التي تسعى الدساتير الدولية إلى الآن أن تصل لهذه الشمولية نظريا وتطبيقيا فلم تفلح.

٧- أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم، تشربوا عالمية هذه الرسالة فعمموها بالفتوحات، وأوصلوها لجميع أجزاء المعمورة، فتحققت بذلك معجزة النبوة الخالدة .

٨- طبيعة الإسلام طبيعة فطرية، فإذا زالت الحواجز بينه وبين مخاطبيه فإنه يجد طريقه إلى قلوبهم وعقولهم التي يغذيها بمبادئه وأحكامه .

٩- كانت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم تحولا حقيقيا في تاريخ البشرية كلها ،وأسهم ذلك في تقدمها إلى الأمام بقوة دافعة، لا نظير لها، وكان التحول ملموسا على جميع الأصعدة، وكان العدل والرحمة مظهراً مطرداً من مظاهر هذه الرسالة..

١٠– آثار الدعوة النبوية على الأخلاق والعادات والسلوك والمشاعر، أمر لا يخفى على من له بصيرة، وإدراك ويقين .

المصادر والمراجع

- الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، ت – قاسم فيصل، دار الراية، ط، ١/١٤١١/

- الأدب المفرد، للبخاري – مؤسسة الكتب الثقافية، ط، ١/١٤٠٦

- أخبار مكة للأزرقي – ت– رشدي الصالح ملحس، ط، ٨/١٤١٦/ دار الثقافة مكة .

- أخبار مكة للفاكهي : محمد بن إسحاق، ت، د، عبد الملك بن دهيش، ط، ٣/١٤١٩/ دار خضر، بيروت

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير – دار الفكر –١٤٠٩

- الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر العسقلاني، دار الفكر

- الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام،ت، محمد خليل هراس،دار الفكر،ط ـ٣

- البداية والنهاية لابن كثير – دار الفكر

- تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري، دار الفكر

- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي – دار الفكر

- تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر – دار الفكر –

١٤١٥/ ت، محب الدين العمري

- التاريخ الكبير، للبخاري، دار الكتب العلمية
- التبيان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ت، غنيم، وعاشور، والبناء، كتاب الشعب
- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر
- تقريب التهذيب – لابن حجر، ت، محمد عوامة، دار الرشد، ط، ٤/١٤١٢/
- تهذيب التهذيب، له أيضا، دار الفكر، ط، ١/١٤٠٤/
- تهذيب الكمال، للحافظ المزي، ت، ذ، بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط، ٤/١٤٠٦/
- الثقات، لابن حبان البستي دار الفكر، ط الأولى ١٤٠٨
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، دا الفكر – ١٤٠٨
- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ت، أبي الأشبال الزهري، دار ابن الجوزي، ط، ١/١٤١٤/
- اجتماع الجيوش الإسلامية، على غزو المعطلة والجهمية، لابن القيم، المكتبة السلفية

- الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط، الأولى
- حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الإصبهاني – دار الفكر
- دلائل التوحيد للقاسمي، مكتبة الثقافة الدينية
- دلائل النبوة لأبي نعيم، دار النفائس، ت، الدكتور قلعجي، ط، ١٤٠٦/٢/
- دلائل النبوة للبيهقي، ت، قلعجي، دار الكتب العلمية، ط، ١٤٠٥/١
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار الفكر
- الروض الأنف، في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، للسهيلي، دار الفكر /١٤٠٩/
- زاد المعاد، في هدي خير العباد – لابن القيم، ـ، شعيب وعبد القادر الأرنؤوطيين مؤسسة الرسالة، ط – ١٤٠٥/٧/
- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، للصالحي، دار الكتب العلمية، ت، عادل، ومعوض، ط، ١٤١٤/١/
- سنن أبي داود، تعليق محي الدين عبد الحميد – دار الفكر
- سنن ابن ماجه، عناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر
- سنن الترمذي، ت، الشيخ أحمد شاكر – دار إحياء التراث

العربي

- السنن الكبرى للبيهقي، دار الفكر
- سيرة ابن إسحاق – ت محمد حميد الله – معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط
- السيرة النبوية لابن هشام، ت، السقا والأنباري وشلبي،
- السيرة النبوية الصحيحة – د أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، ط، ١٤١٥/٦/
- شرح ديوان حسان بن ثابت، تصحيح عبد الرحمان البرقوقي، دار الكتاب العربي – ١٤١٠/
- شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، ت، د، محمد ، أو غلي، دار إحياء السنة
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، ت، مصطفى الشلبي ط /١٤١٢/١/ مكتبة السوادي جدة
- صحيح ابن حبان، دار الفكر، ط، الأولى – ١٤٠٧/
- صحيح مسلم، عناية محمد فؤاد عبد الباقي، در الفكر، ط، /١٣٩٨/٢
- صحيح السيرة النبوية للطرهوني، مكتبة ابن تيمية، جدة – ط – ١٤١٥/١/

- صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، دار النفائس – ط، ١٤١٥/١/
- الطبقات الكبرى لابن سعد – دار الفكر
- طبقات فحول الشعراء – ت محمود شاكر – مطبعة المديني
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس، مكتبة المقدسي، القاهرة
- غريب الحديث لأبي عبيد دار الكتاب العربي، ط، حيدرآباد الهند ـ١٣٩٦
- فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر – المكتبة السلفية، ت، الشيخ عبد العزيز بن باز، ط، الثالثة /١٤٠٧/
- في ظلال القرآن، للسيد قطب، دار الشروق، ط، ١٤٠٢/١٠/
- القاموس المحيط للفيروز ابادي، ترتيب الزاوي
- الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، دار الفكر، ط، ١٤٠٥/٢/
- الكامل للمبرد – دار الفكر
- كشف الأستار للهيثمي، ت، حبيب الرمان الأعظمي، مؤسسة الرسالة، ط، ١٤٠٤/٢/
- لسان الميزان، لابن حجر – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط، ١٣٩٠/٢/

- مجمع الزوائد، للهيثمي، دار الكتاب العربي، ط، ٣/١٤٠٢/
- مجموع الفتاوى لابن تيمية، جمع عبد الرحمان بن قاسم، ط المغربية مكتبة المعارف
- محاسن التأويل، للقاسمي محمد جمال الدين، دار الفكر، ١٣٩٨/
- المحلى لابن حزم – دار الفكر، ت، الشيخ شاكر
- المستدرك للحاكم – دار الفكر – ١٣٩٨/
- مسند الإمام أحمد – دار الفكر ،ط، ١٣٩٨/٢/
- مسند الإمام أحمد – ت – الشيخ شاكر، ط، ١٤١٦/١/ دار الحديث القاهرة
- مسند الطيالسي – ترتيب الساعاتي – ط المنيرية الأولى – ١٣٧٢-
- مصنف ابن أبي شيبة، الدار السلفية الهند، ت، عبد الخالق الأفغاني، ط، ١٣٩٩/٢/
- مصنف عبد الرزاق، ت، حبيب الرحمان الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط ١٤٠٣/٢/
- المعارف لابن قتيبة، دار المعرفة بيروت
- معجم الصحابة للبغوي، ت، محمد الأمين الجكني، مكتبة دار البيان الكويت.

- المعجم الكبير للطبراني، ت، الشيخ عبد الحميد السلفي، ط، الثانية
- المعجم الأوسط للطبراني، ت، الشيخ محمود الطحان، مكتبة المعارف، ط، ١٤٠٥/١/
- المعجم الصغير للطبراني، ت، عبد الرحمان عثمان، المكتبة السلفية ١٣٨٨/
- معرفة الصحابة لأبي نعيم – ت – عادل العزازي، دار الوطن، ط، ١٤١٩/١/
- مفاتيح الغيب للرازي، دار الفكر، ط، ١٤٠٥/٣/
- الموافقات للشاطبي – ت- دراز، دار المعرفة
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، دار المعرفة، ط، ١٣٨٢/١/

مطابع جامعة أم القرى